الحرير

أليساندرو باريكو

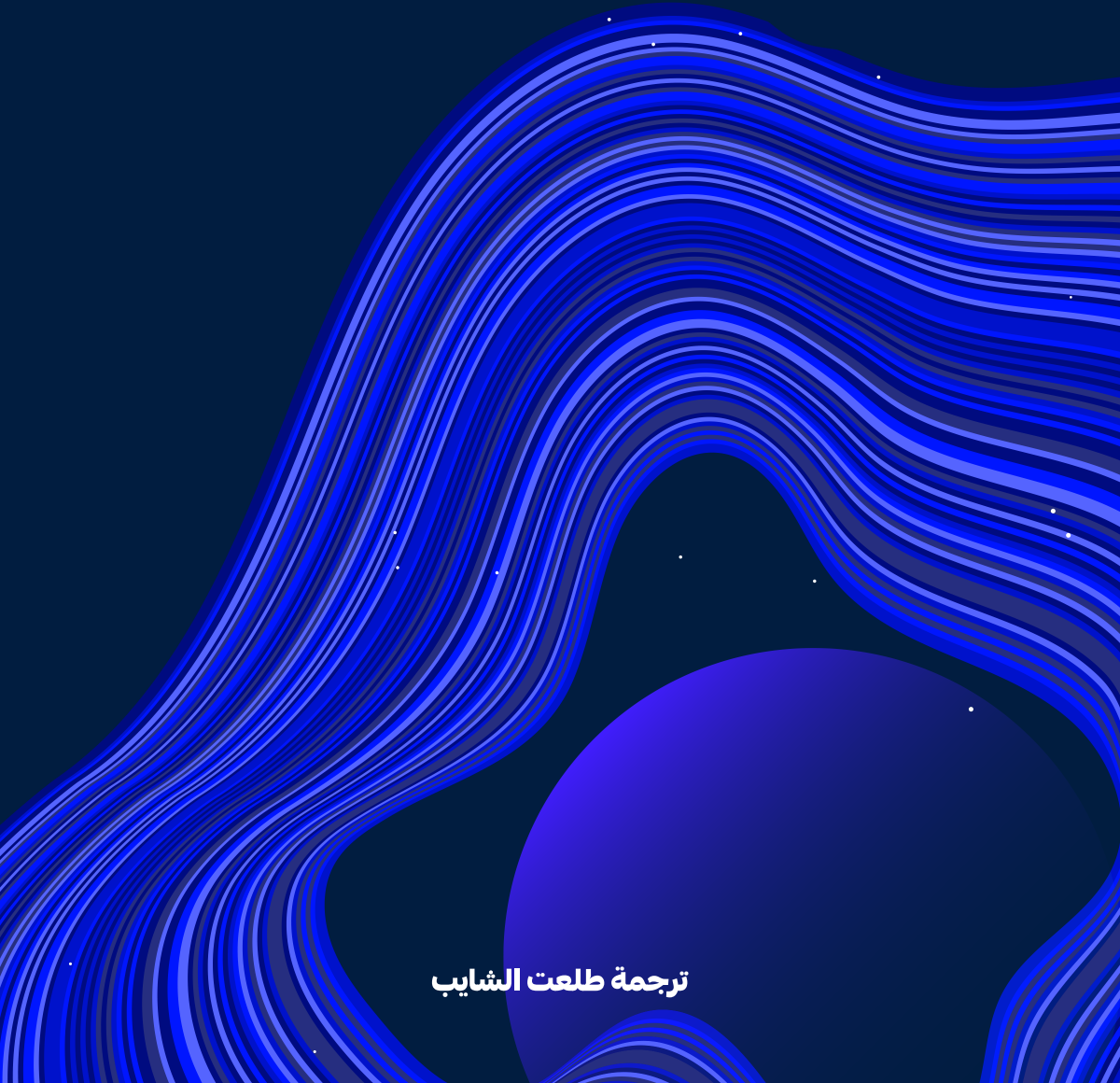

ترجمة طلعت الشايب

الحرير

تأليف
أليساندرو باريكو

ترجمة
طلعت الشايب

هنـــداوي

الحرير

أليساندرو باريكو

Seta

Alessandro Baricco

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونديسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٩٤٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإيطالية عام ١٩٩٦.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ طلعت الشايب.

المحتويات

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم طلعت الشايب ٧
الحرير ٩

مقدمة الأعمال الكاملة للكاتب والمترجم طلعت الشايب

حينما طلبَت مني دار النشر «هنداوي» كتابةَ مقدمةٍ لأعمال والدي الكاملة وإسهاماته في مجال الترجمة، قفزَت إلى ذهني مُباشَرةً صورتُه في جلسته الدَّءُوبة ساعاتٍ طويلة في غرفة مكتبه مُحاطًا بعشرات الكتب والمَراجع والقواميس.

كان أبي قارئًا نَهِمًا ومُتابِعًا دقيقًا لكل الإصدارات الحديثة لمعظم الكُتاب والمُفكرين والأُدباء العرب والأجانب، لكنَّ أمتعَ لحظاته على الإطلاق تلك التي يَقضيها في ترجمةِ عملٍ ونقله من لُغته الأم إلى اللغة العربية. ينشغل أيامًا للعثور على التعبير المناسب أو الكلمة الدقيقة أو المقابل اللغوي الصحيح الذي يَنقل روحَ النص وليس المعنى الحرفي؛ مهمةٌ لم تكن قَطُّ سهلة، خاصةً عند ترجمة الشعر أو الأدب اللذين كان مُولَعًا بهما في الأساس.

احترف أبي الترجمةَ من وحي احترافه القراءةَ والنقد في زمنٍ لم تكن فيه مصادرُ البحث عبر الإنترنت متوافرةً كما هي الآن؛ بكبسةِ زرٍّ تستطيع العثورَ على مصطلحاتٍ أو معلومات أو تفاصيل عن حدَثٍ تاريخي.

كان عليه البحث في المَراجع والكتب أيامًا للعثور على مُرادفٍ له مدلولٌ ثقافي أو معلومات عن حدثٍ تاريخي ورَدَ في كتابٍ يقوم بترجمته.

وتنتهي رحلةُ ترجمة الكتاب بشراء عشرات الكتب الأخرى التي استعان بها في أثناء الترجمة.

كان يصف ترجمةَ الشعر والأدب بالمُغامَرة المحفوفة بالمخاطر. المهمة هنا أشد صعوبةً لأنك لا تنقل أفكارًا أو معلومات، بل أحاسيس ومشاعر وأجواء وروح نص لأعمال مثل: «اتَّبِعي قلبك»، و«أصوات الضمير»، و«بقايا اليوم»، و«هوس العمق»، و«الخوف من المرايا»، و«فتاة عادية»، وغيرها.

عليك، بصفتك مُترجِمًا، مهمة الحفاظ على روح الكاتب الأصلي وموسيقى النص ليصل المعنى بدقةٍ للقارئ، وكأنه يقرأ العمل بلُغته الأصلية، وكأن العمل له كاتبان؛ الكاتب الأصلي والمُترجِم.

في أعوامٍ لاحقة اقترب أبي من التكنولوجيا أكثر، واستخدم الإنترنت التي اختصرَت عليه عمل أيام وشهور، لكنه لم يَتنازل قَطُّ عن استعمال أقلام الرصاص لنقل ما بذهنه على الورق. ترقد الأقلامُ مصفوفةً أمامه بعضها إلى جوارِ بعضٍ على المكتب مَبريَّة وجاهزة للكتابة، وكأنها سلاحه الأمين.

يكتب بسرعةٍ بخط جميل مُنمَّق على أكثر من مرحلة لم تكن إحداها قَطُّ الكتابة على الكمبيوتر. كان يُفضِّل المسوَّدات الورقية، وإدخال التعديلات بالأسهم أو الشطب على الكلمة وكتابة غيرها؛ لتظل أمامه مراحلُ التفكير في الكلمات واستبدالها بأخرى.

يقول لي: أُحب أن تظل أمامي الكلمات «تخايلني»، ربما أعود لها مرة أخرى. لا أُفضل الإلغاء التام أو المسح النهائي الذي توفره أجهزة الكمبيوتر. المسوَّدة بكل هوامشها هي عمليةُ ولادةِ النص المُترجَم.

أبي كان راهبًا في مِحراب الترجمة، شغوفًا برحلته مع كل كتاب، تلمع عيناه في نهاية يومِ عملٍ شاقٍّ بما اكتشفه في رحلته من أفكارٍ وثقافات يَتحدَّث عنها بحماسةِ وسعادةِ مَن يُعيد اكتشاف ذاته كلَّ مرة.

وتبقى الجملة الأجمل بالنسبة إليه عندما يَلتقيه قارئٌ ويُخبره أنه لم يشعر قَطُّ أنه أمامَ عملٍ مُترجَم لسلاسة الترجمة وانسيابية الكتابة.

هذه دعوة للغوص في مجموعةٍ من أهم ما قدَّمه مُفكرون ومُؤرخون وشُعراء ومجالات أخرى متنوعة تناسب كلَّ الأذواق، من بينها كُتبٌ غيَّرت مجرى التاريخ، مثل: «صدام الحضارات»، و«الحرب الباردة الثقافية»، و«فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي»، و«الاستشراق الأمريكي»، وغيرها من الأعمال الهامة.

رحلة عبْرَ ترجماتِ والدي، المُترجِم والكاتب «طلعت الشايب»، وأَعِدُكم بمتعةٍ تضاهي متعةَ قراءةِ العمل الأصلي بلُغته الأم.

منى الشايب

الحرير

١

رغم أن والده كان قد تصور له مستقبلًا زاهرًا في الجيش، إلا أن الأمر انتهى بـ «هيرفي جونكور» لكي يكسب عيشه من عمل غير عادي، ومن دواعي السخرية أن يكون ذلك العمل بصفاتٍ فاتنة خلعَت عليه طابعًا أنثويًّا.

كان «هيرفي جونكور» يشتري ويبيع دود الحرير لكي يكسب عيشه. العام هو ١٨٦١، كان «فلوبير» يكتب «سلامبو»، والضوء الكهربائي مجرد تصور و«أبراهام لنكولن» يخوض حربًا وراء المحيط لا يرى لها نهاية في الأفق.

كان هيرفي جونكور في الثانية والثلاثين.

كان يبيع ويشتري.

دود الحرير.

٢

ولكي نكون دقيقين، فإن «هيرفي جونكور» كان يشتري ويبيع دود الحرير وهو ما يزال بيضًا، أصفر أو رمادي اللون، لا حركة فيه. أو تبدو الديدان وكأنها ميتة يمكن أن تتسع راحة اليد الواحدة للألوف منها.

«يمكن أن تقول إنك تُطبق يديك على ثروة.»

في أوائل شهر مايو يفقس البيض، وتخرج منه يرقات، وبعد أن تشق طريقها أكلًا مجنونًا في ورق التوت، تحبس نفسها مرةً أخرى في شرانق لكي تهرب منها بعد أسبوعَين وإلى الأبد، مُخلفة ثروةً تُقدَّر بألف مترٍ من الحرير الخام، وبالنقد مبلغًا من الفرنكات

الفرنسية لا بأس به، هذا على افتراض أن كل شيءٍ يسير طبقًا للخطة، كما هو الحال بالنسبة لـ «هيرفي جونكور»، إذا كنت في مكانٍ ما جنوبي فرنسا.

كان اسم المدينة التي يعيش فيها «هيرفي جونكور» هي «لافيل ديو».

وكان اسم زوجته «هيلينا».

ولم يكن لديهما أطفال.

٣

ولتجنُّب الأوبئة التي كانت تُتلِف الحضَّانات الأوروبية من وقتٍ لآخر، وبشكل متزايد، كان «هيرفي جونكور» يذهب بعيدًا طلبًا لبيض الدود ... وراء البحر الأبيض ... إلى سوريا ومصر ... وهنا يكمُن الجزء الأكثر مخاطرةً في عمله.

يخرج كل عام في أوائل يناير. يسافر ١٦٠٠ ميلٍ بالبحر، و٨٠ ميلًا برًّا يختار البيض. يناقش السعر، ويشتري.

بعد ذلك يرجع ٨٠ ميلًا برًّا، و١٦٠٠ بحرًا ويعود إلى «لافيل ديو» ... وعادة يوم الأحد الأول من شهر أبريل، وعادة في الوقت المحدَّد للقُداس الكبير.

يعمل أسبوعَين في تجهيز البيض وبيعه.

أما بقية العام فكان يستريح.

٤

وكانوا يسألونه: كيف وجَدتَ أفريقيا؟

– مملة!

كان لديه بيتٌ كبير خارج المدينة ومختبر في وسطها، يقع مباشرةً أمام المنزل المهجور المملوك لـ «جان بيريك».

كان «جان بيريك» قد قرر ذات يومٍ ألا يتكلم أبدًا.

وحفظ وعده. تركَته زوجته وابنتاه. مات. لا أحد كان يريد أن يشتري منزله؛ ولذلك بقي مهجورًا حتى الآن.

شراء وبيع دود الحرير جعل «هيرفي جونكور» يكسب كل عام مبلغًا من المال يحقق له ولزوجته كل وسائل الراحة والحياة المترفة كما يراها أهل الريف.

كان يستمتع بممتلكاته باتزان، أما الاحتمال غير الواقعي بأن يحقق ثروةً حقيقية فقد جعله لا يكترث بشيء.

هذا إلى جانب أنه كان واحدًا من أولئك الناس الذين يحبون أن يكونوا مراقبين لحياتهم ... أما أي طموحٍ فعلي للمشاركة فيها فيعتبره أمرًا غير مناسب.

لاحظ أن أمثال هؤلاء يراقبون، مصائرهم، كما يميل معظم الناس إلى مراقبة يوم مطير ...

٥

لو سئل «هيرفي جونكور» لأجاب إن حياته سوف تستمر على ذلك النحو بعد ذلك ... وإلى الأبد.

وباء «البيبراين»، الذي اكتُشف في دود الحرير، والذي جعل البيض الذي تنتجه الحضانات الفرنسية غير صالح، انتشر فيما وراء البحار في أوائل الستينيات من القرن، ووصل إلى أفريقيا ... ويروي البعض أنه وصل إلى الهند.

عاد «هيرفي جونكور» من رحلته المعتادة في ١٨٦١، بمئونة من البيض اتضح بعد شهرَين أنها مصابة كلها. وكانت تلك السنة تبدو وكأنها نذير ببداية النهاية بالنسبة لـ «لافيل ديو» وغيرها من المدن الكبيرة التي يعتمد ازدهارها على إنتاج الحرير. بدا العالم عاجزًا عن تحديد سبب الوباء، وبدا أنه وقع من أقصاه إلى أقصاه، في قبضة تلك اللعنة غير المفهومة.

قال «بالدابيو» بهدوء: «العالم كله تقريبًا.»

ثم صبَّ قليلًا من الماء في شراب «البرنود» المُسْكر الذي كان يتناوله.

٦

«بالدابيو» هو الرجل الذي جاء إلى المدينة منذ عشرين عامًا. اتجه مباشرةً إلى مكتب العمدة، دخل دون استئذان، ووضع أمامه وشاحًا من الحرير له لون غروب الشمس ... وسأله: هل تعرف ما هذا؟

– شيءٌ للنساء ...

– لا ... بل شيءٌ للرجال ... نقود!

أمر العمدة بطرده. بنَى «بالدابيو» مشغلًا بجوار النهر. وحظيرة بجوار الغابة يربي فيها الدود، وعند مفترق الطرق إلى «فيفيير» بنَى كنيسةً صغيرة وقفًا للقديسة «آجنس»، واستأجر ثلاثين عاملًا، وأرسل إلى إيطاليا يطلب ماكينةً غريبة مصنوعة من الخشب كلها عجلات وتروس ... ولم ينبس بكلمةٍ واحدة لمدة سبعة شهور.

بعد ذلك ذهب إلى العمدة ووضع أمامه أكوامًا من الأوراق المالية الجديدة تُقدَّر بثلاثة آلاف فرنك.

– هل تعرف ما هذا؟

– نقود!

– لا ...! بل دليل على أنك أبله!

ثم جمعها وأسقطها في حقيبته وهَم بالانصراف ...

أوقفه العمدة.

– وماذا تريدني أن أفعل ... بحق الشيطان؟

– لا تفعل شيئًا ... وستكون عمدةً على مدينةٍ غنية ...

بعد خمس سنوات، كان هناك سبعة مشاغل صغيرة في «لافيل ديو» التي أصبحت أحد المراكز الرائدة في تربية دود القز وغزل الحرير في أوروبا. لم تكن كلها ملكًا لـ «بالدابيو». كان بعض الأعيان المحليين وملاك الأراضي قد تبعوا خُطاه في تلك المغامرة التجارية العجيبة، وكان «بالدابيو» قد أفشى سر المهنة لكلٍّ منهم دون صعوبة. كان يجد متعةً كبيرة في ذلك ... متعة أكبر من كسب نقودٍ كثيرة، أن يُعلمهم، أن تكونَ لديه أسرار ينقلها للآخرين.

هكذا كان «بالدابيو».

٧

«بالدابيو» أيضًا، هو الرجل الذي كان قد غير حياة «هيرفي جونكور» قبل نحو ثماني سنوات. وكان ذلك أيام أن بدأت الأوبئة الأولى وأصابت الإنتاج الأوروبي من بيض دود الحرير. في هدوء، ودون قلق، كان «بالدابيو» قد درس الموقف ووصل إلى نتيجة، وهي أن المشكلة لن تُحل، ولكن يجب العمل على تطويقها والتحايل عليها.

وجاءته فكرة. إن كل ما يريده هو أن يجد الشخص المناسب. وأدرك أنه وجده عندما رأى «هيرفي جونكور» مارًّا أمام «مقهى فيردون». كان يبدو أنيقًا وهو يخطو بالزي

الرسمي لملازم أول المشاة، فخورًا ... مختالًا! عسكري في إجازة. في تلك الأيام كان في الرابعة والعشرين. دعاه «بالدابيو» إلى منزله. فتح أمامه «الأطلس» المزدحم بمواقع وأسماء غريبة وقال له: تهنئتي يا بني! أخيرًا وجدتَ لنفسك وظيفةً مهمة.

استمع منه «هيرفي جونكور» إلى حكاية غريبة عن دود الحرير والبيض، والأهرام، والرحلات البحرية ... ثم قال: لا أستطيع.

– ولِم لا؟

– إجازتي تنتهي بعد يومَين ولا بد أن أعود إلى باريس.

– عمل عسكري؟

– نعم ... وهذا ما يريده أبي!

– لا توجد مشكلة.

واقتاد «هيرفي جونكور» مباشرةً إلى والده. قال بعد أن دخل مكتب الرجل دون استئذان: هل تعرف هذا الشخص؟

– إنه ابني.

– انظر إليه مرةً أخرى ...

«ابني «هيرفي» يعود إلى باريس بعد يومَين؛ حيث ينتظره مستقبلٌ مشرق في قواتنا المسلحة ... إنها إرادة الله ... والقديسة آجنس.»

«على وجه التحديد المشكلة هي أن عند الله سمكةً أخرى يشويها، كما أن القديسة «آجنس» لا تحب الجنود.»

بعد شهرٍ غادر «هيرفي جونكور» إلى مصر. سافر على متن سفينة اسمها «عادل» كانت الروائح المتصاعدة من مطبخ السفينة تملأ القمرات. هناك رجل يقول إنه حارب في «ووترلو». في مساء اليوم الثالث وميض الدولفين على الأفق البعيد مثل الأمواج السَّكْرى ...

بعد شهرَين عاد في يوم الأحد الأول من شهر أبريل. في وقت القداس الكبير. معه آلاف البيض ملفوفة في زغبٍ قطني في صندوقَين كبيرَين من الخشب. لديه حكاياتٌ كثيرة. ولكن بمجرد أن أصبحا على انفراد قال له «بالدابيو»: احكِ لي عن الدولفين ...

– الدولفين؟

– عن الوقت الذي ظهر فيه ...

هكذا كان بالدابيو ...

لم يكن أحدٌ يعرف كم عمره.

٨

«العالم كله تقريبًا»، قال «بالدابيو» وهو يصُب قليلًا من الماء في كأس «البرنود» المُسْكر الذي كان يشربه.

ليلة من ليالي أغسطس. بعد منتصف الليل. عند هذه الساعة تقريبًا لا بد أن يكون مقهى الفيردون مغلقًا لبعض الوقت.

الكراسي مقلوبة على الطاولات في صفوف منتظمة. كل شيء تم تنظيفه بعد انتهاء العمل. كل شيء. لم يبقَ سوى إطفاء الأنوار وإغلاق المحل. ولكن «فيردون» انتظر. كان «بالدابيو» يتكلم.

«هيرفي جونكور» أمامه يُنصِت إليه دون حركة، وبين شفتَيه سيجارةٌ ميتة منذ ثماني سنوات، كان قد ترك الرجل ليعيد كتابة مصيره على نحوٍ منظم.

صوته يأتي واضحًا وهادئًا ... تقطعه رشفاتٌ من الكأس كأنها علامات ترقيم في كتابة!

لم يتوقف عن الكلام دقيقةً واحدة. كان آخر ما قال: لا خيار ... إذا كنت تريد أن تنجو ... فعلينا أن نصل إلى هناك!

صمت.

رفع «فيردون» الذي كان يتكئ على الطاولة عينَيه لكي ينظر إليهما. «بالدابيو» يركز لكي يكتشف رشفةً أخرى في قاع «كأس البرنود». «هيرفي جونكور» وضع سيجارته على حافة الطاولة قبل أن: يقول هذا المكان الذي اسمه اليابان ... أين هو بالضبط؟

رفع بالدابيو رأسه ليشير به إلى ما وراء سقف كنيسة سان أوجست وهو يقول: «في هذا الاتجاه ... واستَمِر ...»

«مباشرة ... حتى آخر العالم ...»

٩

في تلك الأيام، كانت اليابان بالفعل في الطرف الآخر من العالم. جزيرة مكونة من عدة جزر. وعلى مدى مائتي عام عاشت مقطوعة عن بقية العالم الإنساني تمامًا، ترفض الاتصال بالقارة وتمنع الأجانب من دخولها. الساحل الصيني يقع على بُعد مائتَي ميل تقريبًا، ولكنَّ مرسومًا إمبراطوريًّا يحظر بناء أي سفينة تحمل أكثر من شراع، كان له أثره على زيادة المسافة. لم يكن هناك قانون ضد الهجرة، ولكن الذين يحاولون العودة كان يُحكم عليهم

بالإعدام. وقد بذل التجار الصينيون والهولنديون والإنجليز جهودًا متكررة لاختراق تلك العزلة الغريبة، لكن محاولاتهم لم تسفر عن شيء أكثر من تكوين شبكاتٍ هشَّة وخطرة من المهربين. ولم يُحققوا من وراء ذلك سوى مكاسب تافهة وكثير من المتاعب والأساطير العجيبة التي تُروى في موانئ المساء. لكن ما فشلوا فيه نجح فيه الأمريكيون بقوة السلاح.

ففي يوليو ١٨٥٣، أبحر الكومودور «ماثيوسي بيري» في خليج يوكوهاما بأسطولٍ حديث يعمل بالبخار، وسلم إنذارًا لليابانيين طالبًا منهم أن يفتحوا الجزيرة أمام الأجانب.

لم يكن اليابانيون قد رأَوا قبل ذلك سفينة يمكن أن تبحر عكس اتجاه الريح. وعندما عاد «بيري» بعد سبعة شهور ليتسلم الرد على إنذاره، وافقَت الحكومة العسكرية للجزيرة على فتح ميناءَين للأجانب شمالي البلاد، وبدأَت العلاقات التجارية الأولى … المحسوبة بدقة، ثم أعلن الكومودور في وقار أن «البحر حول تلك الجزيرة قد أصبح اليوم أكثر ضحالة.»

١٠

كان «بالدابيو» على علم بكل تلك الحكايات. وفوق كل شيء، كان على علم بأسطورة ظلت تتردد دائمًا في القصص التي يرويها الذين ذهبوا إلى هناك. كان يُقال إن الجزيرة تنتج أفخر حرير في العالم. فقد كانوا يصنعون الحرير منذ أكثر من ألف عام وطبقًا لطقوس وأسرار وصلَت إلى درجة كبيرة من الدقة الصوفية.

أما الذي طرأ على ذهن «بالدابيو» فهو أن تلك لم تكن أسطورة بل هي الحقيقة الخالصة البسيطة … كان ذات مرة قد أمسك بين أصابعه بوشاحٍ من الحرير الياباني وشعر بأنه لا يلمس شيئًا …

وهكذا حين بدا الأمر وكأن كل شيء قد أخفق بسبب الوباء والبيض المصاب كان هذا هو ما فكَّر فيه:

«هناك جزيرة مليئة بدود الحرير، جزيرة لم ينجح تاجر صيني أو بائع إنجليزي أن يصل إليها على مدى المائتَي عام الأخيرة … ولا بد أن تكون جزيرة لم يصل إليها أي مرض.»

لم يكتفِ بالتفكير في ذلك الأمر. قال أكثر منه لكل صانعي الحرير في «لافيل ديو» بعد أن جمعهم في مقهى «فيردون». لم يكن أحدٌ منهم قد سمع باسم اليابان.

«هل علينا أن نقطع العالم لكي نصل إلى هناك ونشتري البيض كما يأمرنا الله … ومن ذلك المكان الذي يشنقون فيه الأجانب بمجرد رؤيتهم؟»

صحَّح له «بالدابيو» قائلًا: «بل كانوا يشنقون.»

لم يعرفوا كيف يفكرون، فكر أحدهم في الاعتراض.

«حيث إن أحدًا لم يفكر في الذهاب إلى هناك لشراء البيض فلا بد أن هناك سببًا.»

ربما كان «بالدابيو» يميل إلى الخداع، معتقدًا أن ما كان ينقص العالم هو «بالدابيو» آخر، ولكنه آثر أن يقدم إجابة مباشرة.

«اليابانيون وطَّنوا أنفسهم على بيع الحرير، وليس البيض. ويُحكِمون قبضتهم على ذلك. وإذا حاولتَ أن تغادر الجزيرة وفي حوزتك شيء منه فإنك ترتكب مخالفةً جنائية.»

كان جميع صانعي الحرير في «لافيل ديو» من الأعيان تقريبًا. كانوا محترمين. لم يخطر ببال أحدهم قط أن يكسر أيَّ قانون في بلاده … أما فكرة عمل ذلك في الطرف الآخر من العالم فقد كانت تبدو لهم معقولة تمامًا.

١١

العام هو ١٨٦١.

كان «فلوبير» يكتب «سلامبو»، والضوء الكهربائي مجرد تصوُّر و«أبراهام لنكولن» يخوض حربًا وراء المحيط لا يرى لها نهاية في الأفق.

اجتمع صانعو الحرير في «لافيل ديو»، وجمعوا المبلغ المطلوب للرحلة التي ارتأَوا جميعا أن من المنطقي أن يعهدوا بها لـ «هيرفي جونكور» وعندما طلب منه «بالدابيو» أن يوافق على ذلك رد عليه بسؤال: هذا المكان الذي يُسمَّى «اليابان» … أين يقع بالتحديد؟

«استمِر … حتى آخر العالم.»

بدأ في السادس من أكتوبر. بمفرده.

على أبواب «لافيل ديو» عانق زوجته «هيلينا» وقال لها بهدوء … «لا تقلقي على شيء.»

كانت امرأةً طويلة القوام، تتحرك ببطء، لها شعرٌ طويل لم تربطه قط. وصوتٌ بالغ العذوبة والجمال.

١٢

انطلق «هيرفي جونكور» ومعه ثمانون ألف فرنك من الذهب وأسماء ثلاثة رجال قدَّمها له «بالدابيو»، صيني وهولندي وياباني. عبر الحدود بالقرب من «ميتز»، قطع «فورتمبرج»

وبافاريا، دخل النمسا، وصل إلى «فيينا» و«بودابست» بالقطار ليكمل حتى «كييف». قطع ألفَي كيلومتر من السهول الروسية على ظهر حصان، عَبر «الأورال»، دخل «سيبيريا» ... واستمر أربعين يومًا حتى وصل إلى بحيرة «بايكال» المعروفة محليًّا باسم «البحر»، هبط مع مجرى نهر «آمور»، التفَّ حول الحدود الصينية حتى المحيط، وعندما وصل إلى المحيط توقَّف عند ميناء «سابيرك» أحد عشر يومًا حتى أوصلَته سفينة تهريب هولندية إلى «كيب تيرايا» على الساحل الغربي لليابان. ثم عن طرقٍ جانبية عبر أقاليم «إيشيكاوا» و«نيجاتا» على قدمَيه ودخل إقليم «فوكوشيما» ووصل إلى مدينة «شيراكاوا»، تقدَّم نحو الجانب الشرقي منها وانتظر يومين رجلًا يرتدي ثيابًا سوداء، عصب عينَيه واقتاده إلى قرية على التلال حيث قضى ليلته، وفي اليوم التالي تفاوض على شراء البيض مع رجل لا يتكلم ويغطي وجهه بخمار من الحرير. لونه أسود. وعند الغروب أخفَى البيض بين متاعه. أدار ظهره لليابان وبدأ رحلة العودة.

لم يكد يعبُر المنازل الأخيرة من القرية حتى لحق به رجلٌ جاء يركُض خلفه لكي يوقفه. قال له شيئًا بصوتٍ ثائرٍ متعجرف، ثم رافقه بحزم وأدب وعاد به.

لم يكن «هيرفي جونكور» يتكلم اليابانية، ولم يفهم ما قاله الرجل. كل ما عرفه هو أن «هاراكي» كان يريد أن يراه.

١٣

أزاحا لوحًا من الورق الرقيق المصنوع من قش الأرز، ودخل «هيرفي جونكور». كان «هاراكي» يجلس القرفصاء على الأرض في أبعد ركن من الغرفة. يرتدي سترة طويلة داكنة اللون، ودون جواهر. كانت العلامة الواحدة التي تدُل على نفوذه امرأة ترقد إلى جواره ساكنة تمامًا، رأسها في حجره، عيونها مغمضة، ذراعاها مختفيتان بين ثنايا رداء أحمر فضفاض مثل اللهب، مبسوط حولها على الحصيرة الرمادية. وكان «هاراكي» يمرر يده ببطء على شعرها وكأنه يمسد برفق شعرًا ناعمًا لحيوانٍ نائم ...

عبر «هيرفي جونكور» الغرفة، انتظر إشارةً من مضيفه وجلس أمامه. استمرَّا هكذا في صمت، عينا كُلٍّ منهما على الآخر. جاء خادم في هدوء ووضع أمامهما كوبَين من الشاي واختفَى بعدها مثل النسمة.

بدأ «هاراكي» يتكلم بلغته، صوته رتيب، نبرته عالية وبها رنة ألم، وكان «هيرفي جونكور» يُنصِت. عيناه مثبَّتتان على عينَي «هاراكي» ثم في لمحة واحدة أسقطهما على وجه المرأة وكأنه مدرك لوجوده صراحة.

كان وجه فتاة صغيرة.

رفع عينَيه مرة ثانية.

توقف «هاراكي» عن الكلام، رفع أحد الكوبَين، قرَّبه من شفتَيه، انتظر لحظة ثم قال: «حاوِل أن تخبرني من أنت.»

قال ذلك بالفرنسية وهو يحاول جذب النبرات بصوتٍ ودود مبحوح.

١٤

حاول «هيرفي جونكور» أن يشرح مَن يكون لأكبر شخصية محيرة في اليابان وسيد كل ما كان العالم يحتال أن يحمله من الجزيرة، فعل ذلك بلغته، يتكلم ببطء وليس متأكدًا إن كان «هاراكي» يفهم ما يقول أم لا. كان يتجنَّب الحذر بالغريزة، وقال الحقيقة كاملة بكلماتٍ بسيطة. لم يخترع شيئًا. لم يحذف شيئًا. وضع أمامه كل التفاصيل الصغيرة والأحداث المهمة بنفس الصوت المنخفض الرتيب وبأقل قدْر من الإيماءات وكأنه يسرد قائمة أشياء نجت من الحريق وبإيقاعٍ ممل ... محايد. «هاراكي» يستمع إليه دون أي تعبير يقلق ملامحه، يركز عينَيه على شفتَي «هيرفي جونكور» وكأنه ينظر إلى السطور الأخيرة من خطاب وداع.

كل ما في الغرفة صمت. لا حركة، لدرجة أن ما حدث بعد ذلك — رغم أن شيئًا لم يحدث — بدا مهمًّا.

فجأة،

دون أي حركة،

الفتاة الصغيرة،

فتحَت عينَيها.

واصل «هيرفي جونكور» حكايته ولكنه خفض عينَيه نحوها، ما رآه وهو يكمل حديثه هو أن عينَيها لم يكن لهما تلك السحبة الشرقية وأنهما كانتا مثبتتَين عليه بقوة مربكة: كأنهما كانتا على تلك الحال منذ البداية، ومن تحت الجفنَين المنخفضَين. أدار «هيرفي جونكور» عينَيه وِجهةً أخرى، محاولًا قَدْر الاستطاعة أن يبدو غير مكترث، وأن يواصل حكايته دون أن يغير نبرات صوته.

لم يتوقف إلا عندما لمحت عينه كوب الشاي الموضوع أمامه على الأرض.
التقطه بإحدى يدَيه، حمله إلى شفتَيه وراح يرشف ببطء.
ثم واصل حكايته عندما وضع الكوب أمامه مرةً أخرى.

١٥

فرنسا، الرحلات البحرية، رائحة أشجار التوت في «لافيل ديو»، القطارات البخارية، صوت «هيلينا» ... «هيرفي جونكور» يواصل حكايته كما لم يفعل في حياته من قبل. والفتاة تواصل التحديق فيه بتركيزٍ شديد لدرجة يشعر معها بالاضطرار إلى شحن كل كلمة بمعنًى استثنائي.

انزلقَت الغرفة مرةً أخرى في سكونٍ تام، عندما مدت الفتاة يدًا من ردائها في صمت ووضعتها أمامها على الحصيرة.

لاحظ «هيرفي جونكور» ذلك الشيء الضبابي الشاحب يقتحم حافة مجال بصره، رأى يدها تنسل نحو كوب «هاراكي» لتتخطاه وتواصل مسارها لتمسك بالكوب الآخر دون تردد. الكوب الذي شرب منه. وضعَت يدها عليه بهدوء وحملَته. لم يرفع «هاراكي» عينَيه الخاليتَين من التعبير لحظةً واحدة عن شفتَي «هيرفي جونكور».

رفعت الفتاة رأسها برقة بالغة.

لأول مرة تحول عينَيها عن هيرفي جونكور وتنظر إلى الكوب. أدارته في يدها ببطء، حتى أصبحَت شفتاها عند النقطة التي شرب منها بالضبط.

أغمضَت عينَيها ورشفَت رشفة من الشاي.

أزاحت الكوب عن شفتَيها.

أعادته إلى المكان الذي أخذَته منه.

وسحبَت يدها إلى داخل الرداء.

أراحت رأسها مرةً أخرى في حجر هاراكي. عيناه ظلَّتا مفتوحتَين، ومثبتتَين على عينَي «هيرفي جونكور.»

١٦

بعد ذلك تكلم «هيرفي جونكور» طويلًا. لم يتوقف إلا عندما أدار «هاراكي» عينَيه وانحنى رأسه نُعاسًا.

صمت.

ثم قال «هاراكي» بصوتٍ ودودٍ مبحوح وهو يجُر الحروف جرًّا «أتمنى أن أراك مرة أخرى ... إن كنت ترغب في ذلك.»

وابتسم ... لأول مرة.

«البيض الذي تحمله لا قيمة له ... إنه بيضُ سمك.»

خفض «هيرفي جونكور» عينَيه. كوب الشاي أمامه. تناولَه وبدأ يديره في يده. يتفحصه جيدًا كأنه يبحث عن شيءٍ ما على حافته الملونة. عندما وجد ما كان يبحث عنه وضع شفتَيه عليه وشرب حتى القطرة الأخيرة.

ثم وضع الكوب أمامه وقال: «أنا أعرف.»

ضحك «هاراكي» ضحكة خافتة.

– «ألذلك دفعتَ الذهب الزائف؟»

– «لقد دفعتُ ثمَن ما اشتريتُ ...»

ثم بدا «هاراكي» جادًّا مرةً أخرى.

– «عندما تغادر هذا المكان ستحصل على ما تريد.»

– «عندما أغادر هذه الجزيرة حيًّا، ستحصل على ما تستحق من ذهب ... وهذا وعد.»

لم ينتظر «هيرفي جونكور» ردًّا. قام. خطا خطواتٍ قليلة إلى الخلف ثم انحنى.

عيناها كانتا آخر ما رأى قبل أن يبرح الغرفة ... مثبتتَين عليه ... صامتتَين تمامًا.

١٧

بعد ستة أيام كان «هيرفي جونكور» على ظهر سفينة تهريب هولندية في «تاكا أوكا» حملته إلى «سابيرك». من هنا التف حول الحدود الصينية حتى بحيرة «بايكال». قطع أربعة آلاف كيلومتر فوق أرض «سيبيريا»، عبر «الأورال»، واصل عائدًا إلى «كييف»، ثم عبر أوروبا كلها بالقطار من شرقها إلى غربها حتى وصل بعد رحلة ثلاثة أشهر إلى فرنسا.

في يوم الأحد الأول من أبريل — وفي وقت القُداس الكبير — وصل إلى أبواب «لافيل ديو». وقف. حمد الله ودخل المدينة سيرًا على قدمَيه يعُد الخطى. لكل خطوة اسم ... وإنه لن ينسى الأسماء.

سأله «بالدابيو»: كيف رأيتَ نهاية العالم؟

– غامضة، خفية غير منظورة ...

أحضر لزوجته «هيلينا» سترة قصيرة من الحرير، ولكنها — حياء — لم تلبسها قط. لو أمسكتَ بها بين أصابعك فكأنك لا تُمسك شيئًا.

١٨

كان البيض الذي جلبه «هيرفي جونكور» من اليابان عالقًا بالمئات من شرائح لحاء شجر التوت، سليمًا تمامًا.

وفي ذلك العام كان إنتاج الحرير في المنطقة المحيطة بـ «لافيل ديو» لا مثيل له كمًّا ونوعًا.

تقرَّر بناء مشغلَين آخرَين، كما بنى «بالدابيو» رواقًا بجانب كنيسة «سانت آجنس». لم يكن السبب واضحًا، ولكنه تخيله بناءً دائريًّا؛ ولذلك عهد بالعمل لمعماري إسباني اسمه «خوان بينيتز» كان يحظى بقَدْر من الشهرة في إدارة شركة «بلازا دو توروز».

«ليس هناك داعٍ للرمل في الوسط بالطبع، فلتكن حديقة، وإن أمكن ... رءوس دلافين بدلًا من الثيران عند المدخل.»

– دلافين يا سينيور؟

– السمك يا بينيتز ... هل تفهمني؟

راجع «هيرفي جونكور» حساباته مرتين واكتشف أنه أصبح غنيًّا. اشترى ثلاثين فدانًا جنوبي أملاكه، وأمضى شهور الصيف في تجهيز حديقة، يكون السير فيها مبعثًا على الهدوء والسكينة. كان في ذهنه أن تكون غامضة مثل نهاية العالم.

كان كل صباح يسير حتى مقهى «فيردون» يستمع إلى ما هناك من ثرثرة ويقلب الصحف القادمة من «باريس».

وفي المساء يجلس في رواق منزله ... إلى ما لا نهاية ...

بجوار زوجته «هيلينا». كانت تقرأ من كتاب بصوتٍ عالٍ وهذا يجعله سعيدًا، فلا صوت في العالم يعدل صوتها جمالًا عنده. في ٤ سبتمبر ١٨٦٢، بلغ الثالثة والثلاثين من العمر، حياته أمامه كالمطر. رؤيا سلام!

١٩

«لا تقلق على شيء»؛ حيث إن «بالدابيو» قرَّر ذلك، وصل «هيرفي جونكور» مرة أخرى إلى اليابان في أول يومٍ من أكتوبر. عبر الحدود الفرنسية بالقرب من «ميتز»، قطع «فورتمبرج»

و«بافاريا»، دخل النمسا، واصل إلى «فيينا» و«بودابست» بالقطار ليكمل من هناك حتى «كييف». قطع ألفَي كيلو متر من السهول الروسية على ظهر حصان، عبر «الأورال»، دخل «سيبيريا»، أكمل لمدة أربعين يومًا حتى وصل إلى بحيرة «بايكال» المعروفة محليًّا باسم «الروح الحارسة»، هبط مع مجرى نهر «آمور»، التفَّ حول الحدود الصينية حتى المحيط، وعندما وصل إلى المحيط وقف في ميناء «سابيرك» لمدة أحد عشر يومًا حتى نقلَته سفينة تهريب هولندية إلى «كيب تيرايا» على الساحل الغربي لليابان.

وعبْر طرق ثانوية قطع أقاليم «إيشيكاوا»، و«توياما»، و«نيجاتا» على قدمَيه، ودخل إقليم «فوكوشيما»، ووصل إلى مدينة «شيراكاوا»، تقدَّم نحو شرقها، انتظر يومَين رجلًا يلبس ثيابًا سوداء، عصب عينَيه واقتاده إلى قرية «هاراكي»، عندما كان بمقدوره أن يفتح عينَيه وجد نفسه أمام خادمَين حملا عنه متاعه وأخذاه إلى حافة غابة وعيَّنا له ممرًّا ... وتركاه.

مضى «هيرفي جونكور» في طريقه بين الظلال حيث كانت الأشجار من حوله ومن فوقه تقطع ضوء الشمس. لم يتوقف إلا عندما وجد أمامه فتحة في النباتات على نحوٍ مفاجئ، كانت عند نهاية الممر وتشبه النافذة. رأى أمامه بحيرة على مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا. كان «هاراكي» جالسًا القرفصاء بجوار البحيرة وظهره له، مع امرأة في ثوبٍ برتقالي وشعرها منسدل على كتفَيها. بمجرد أن رآها «هيرفي جونكور» التفتَت ببطء ونظرَت إليه نظرةً خاطفة ... ولكنها كافية لتكون عيناها في عينَيه. لم يكن لعينَيها تلك السحبة الشرقية، أما الوجه فهو وجه فتاةٍ صغيرة.

واصل «هيرفي جونكور» سيره وسط كثافة الغابة، وانتهى به الأمر ليجد نفسه على حافة البحيرة. أمامه بخطواتٍ قليلة «هاراكي» يجلس منفردًا، لا حركة، ظهره له، يرتدي ملابس سوداء. إلى جواره ثوبٍ برتقالي ملقًى على الأرض وصندل من القش. اقترب «هيرفي جونكور».

كانت الموجات الدائرية الدقيقة تدفع ماء البحيرة نحو الشاطئ وكأنها قادمة من مكان بعيد. همهَم «هاراكي» دون أن يلتفت خلفه ... «صديقي الفرنسي».

جلسا متجاورَين عدة ساعات يتحدثان ملتزمَين السلام بينهما.

ثم وقف «هاراكي» ... وفعل «هيرفي جونكور» الشيء نفسه، وقبل أن يتجه صوب الممر، وبإيماءة خفية ... أسقط فردة من قفازه بجوار الثوب البرتقالي الملقى على شاطئ البحيرة. كان الوقت مساء عندما وصلوا إلى القرية.

٢٠

نزل «هيرفي جونكور» ضيفًا على «هارا كي» أربعة أيام. كأنه يعيش في بلاط ملك. كل القرية في خدمته. كل فعلٍ في تلك التلال إما لحمايته أو إمتاعه. الحياة ترنيمة مكبوتة، تسير بإيقاع بطيء محسوب، مثل وحشٍ مهدَّد في مخبأ، كان العالم يبدو بعيدًا ... وبقرون كثيرة.

«هيرفي جونكور» له منزل خاص وخمسة من الخدم يصحبونه أينما ذهب. يأكل وحيدًا في ظل شجرة ذات أزهار ملونة لم يرَ مثلها من قبلُ.

مرتَين في اليوم يقدَّم له الشاي في طقسٍ وقور. في المساء يصحبونه إلى أكبر غرفة في المنزل، أرضيتها من الحجر، وهنا ينفذ طقس الاستحمام. ثلاث نساء في عمرٍ واحد، وجوههن مغطاة بطبقة من الشمع الأبيض يسكبن الماء عليه ويجفِّفنه بمناشفَ دافئة مصنوعة من الحرير. الأيدي شائهةٌ ولكن اللمسات رقيقةٌ وخفيفةٌ إلى أقصى درجة.

في صباح اليوم التالي شاهد «هيرفي جونكور» رجلًا أبيض يصل إلى القرية، مصحوبًا بعربتَين محملتَين بصناديقَ خشبية كبيرة. رجل إنجليزي. لم يكن هنا ليشتري ... كان هنا ليبيع.

«سلاح يا مسيو ... وأنت؟»

«أنا أشتري دود الحرير.»

تناولا الغداء معًا. كان لدى الإنجليزي حكايات كثيرة. يسافر بين أوروبا واليابان جيئةً وذهابًا منذ ثماني سنوات.

استمع «هيرفي جونكور» إليه، وفي النهاية سأله: «هل تعرف امرأة صغيرة، أوروبية، على ما أعتقد تعيش هنا؟» استمر الإنجليزي في تناول طعامه جامد الوجه.

«لا يوجد نساءٌ بيض في اليابان ... ليس في اليابان امرأةٌ بيضاءُ واحدة.»

في اليوم التالي غادر محملًا بالذهب.

٢١

«هيرفي جونكور» لم يرَ «هاراكي» ثانية حتى صباح اليوم الثالث. لاحظ أن الخدم الثلاثة قد اختفَوا فجأة وكأن ذلك بفعل سحر ... ثم رآه يظهر بعد لحظة.

الرجل الذي كانت القرية كلها تدور حوله، كان يتحرك وسط فقاعةٍ فارغة. وهم. وكأن هناك قانونًا غير مكتوب يتطلب أن يتركوه وحده. تسلَّقا معًا جانب التل حتى وصلا

إلى منطقة جرداء. فجأة أصبحَت السماء فوقهما مخطَّطة نتيجة طيران عشرات الطيور ذات الأجنحة الزرقاء.

قال «هاراكي»: «السكان المحليون يراقبون طيرانها ويقرءون المستقبل فيها.»

«عندما كنتُ صغيرًا. أخذني أبي إلى مكان مثل هذا، وضع قوسه في يدي وطلب مني أن أرمي واحدًا منها، فعلت، وسقط على الأرض طائرٌ كبير بجناحَين أزرقَين ... سقط مثل الحجر. وقال والدي: اقرأ طيران سهمك إذا كنتَ تريد أن تعرف مستقبلك.»

كانت الطيور ترتفع وتهبط في السماء بحركة بطيئة كأنها تريد أن تمسحها بأجنحتها.

عادا إلى القرية يسيران في ضوء آخر النهار الذي له مظهر المساء، عندما وصلا إلى منزل «هيرفي جونكور» افترقا. استدار «هاراكي» وسار بخطًى وئيدة على الطريق الممتدة بحذاء النهر.

«هيرفي جونكور» واقف على عتبة المنزل يراقبه، انتظر حتى أصبح على بعد مائتَي خطوة منه وقال: «متى ستخبرني بأمر تلك الفتاة الصغيرة؟»

واصل «هاراكي» سيره بخطًى وئيدة ... متروِّية ... لا تنم عن أي أثر للإجهاد. كان الصمت يخيِّم ... كأنه فراغ ... وكأن هناك قانونًا يُملى ... أينما يذهب هذا الرجل ... فإنه يذهب في عزلةٍ كاملة ... وتامة.

٢٢

في صباح اليوم الأخير، غادر هيرفي جونكور المنزل وخرج ليتجول في القرية. كان يمر برجال، ونساء يخفضن عيونهن ويبتسمن له.

يعرف أنه قريب من منزل «هاراكي» لأنه رأى قفصًا ضخمًا يضم عددًا كبيرًا من الطيور ... طيور من كل نوع ... وعلى نحو غير عادي. كان «هاراكي» قد أخبره كيف استطاع أن يجعل تلك الطيور تجيء إليه من جميع أنحاء العالم. كان لبعضها قيمة تفوق قيمة كل الحرير الذي تنتجه «لافيل ديو» في عامٍ كامل. وقف «هيرفي جونكور» ينظر إلى تلك الثروة الباذخة. تذكَّر أنه كان قد قرأ في أحد الكتب أن الرجال الشرقيين يُهدون عشيقاتهم الطيور النادرة. لا يقدمون لهن الجواهر، بل الطيور.

منزل «هاراكي» غارق في بحيرة من الصمت. توقف هيرفي جونكور على بعد خطواتٍ قليلة من المدخل. لا توجد أبواب بمعنى الكلمة ... هي أبوابٌ مصنوعة من الورق تتراقص خلفها ظلال وتختفي، ولا تترك أثرًا ولا صوتًا. لا شيء هنا يشبه الحياة.

لو أن هناك اسمًا لذلك فلا بد أن يكون «المسرح».

«هيرفي جونكور» واقفٌ ينتظر ولا يعرف لماذا. صامتٌ جامد على بُعد خطوات من المنزل.

مستسلم طوال الوقت للقدَر والظلال والصمت ... ولكل ما يمنحه ذلك المسرح في النهاية، استدار «هيرفي جونكور» وواصل تقدُّمه نحو منزله بخطًى نشطة. أحنى رأسه قليلًا، وراح يراقب خطواته ... كان ذلك يساعده على تجنُّب التفكير.

٢٣

في المساء، حزم «هيرفي جونكور» حقائبه. تركهم يأخذونه إلى الغرفة ذات الأرضية الحجرية وإتمام طقوس الاستحمام. رقد. أغمض عينَيه وفكر في قفص الطيور الكبير. دليل العشق المجنون. قطعة من القماش الرطب وُضعَت فوق عينيه. لم يفعلوا ذلك من قبل. حاول تلقائيًّا أن يزيحها ولكنَّ يدًا أمسكَت بيده ومنعَته من ذلك. لم تكن اليد العجوز لامرأة عجوز.

أحس «هيرفي جونكور» بالماء يتدفق على جسده، على ساقَيه أولًا ... ثم على ذراعَيه وصدره. ماء مثل الزيت. صمتٌ غريب من حوله. أحس بهفهفة غطاء حريري يلقى عليه وبيد امرأة — يد امرأة — تُجففه كله وتُداعب جسده، اليدان والقماش المنسوج من لا شيء. لم يتحرك في موضعه قيد أنملة، حتى عندما أحس باليدَين وهما تنتقلان من كتفَيه إلى رقبته، وبالأصابع — الحرير والأصابع — تصعد إلى شفتَيه تمسُّهما ... برفق ... ببطء ثم تختفي.

بعد ذلك شعَر بالغطاء الحريري يرتفع ويبتعد عنه.

ثم كان آخر شيء ... يدٌ فتحَت يده ووضعَت شيئًا في راحته.

انتظر وقتًا طويلًا في الصمت دون حَراك. بعد ذلك أزاح القماش الرطب من على عينَيه. لم يكن في الغرفة ضوء تقريبًا ... ولا أحد هناك ...

قام. تناول السترة الملقاة مطويةً على الأرض ووضعها حول كتفَيه ... ترك الغرفة وعبر المنزل حتى وقف بجوار الحصيرة ... ورقد. كان يراقب شعلة المصباح الدقيقة وهي تتراقص أمام ناظريه. وبحرص شديد ... كل الحرص ... أوقف الزمن ... أوقفه إلى أطول مدًى ... ثم فتح راحة يده ورأى قصاصة الورق صغيرة جدًّا.

حروف قليلة مرسومة فوق بعضها.

حبر أسود.

٢٤

في اليوم التالي غادر «هيرفي جونكور» في الصباح الباكر. كان يُخفي بين أمتعته كمياتٍ كبيرة من بيض دود الحرير ... أو بمعنًى آخر، كان يحمل معه مستقبل «لافيل ديو» والعمل لمئات البشر والثروة لعشرات منهم.

وعندما انعطف الطريق ليُخفي منظر القرية وراءه إلى الأبد خلف كتف الجبل، وقف «هيرفي جونكور» غير مُبالٍ بالرجلَين اللذَين كانا يرافقانه. نزل من على الحصان وتوانى قليلًا على جانب الطريق، عيناه على تلك البيوت التي تتسلق جانب التل. بعد ستة أيام كان على ظهر سفينة تهريب هولندية في «تاركا أوكا»، حملَته إلى «سابيرك». ثم التف حول الحدود الصينية حتى بحيرة «بايكال». قطع أربعة آلاف كيلومتر من «سيبيريا»، عبر «الأورال»، واصل عائدا إلى «كييف» وعبر كل أوروبا بالقطار ... من شرقها إلى غربها ... حتى كان بعد ثلاثة أشهر في فرنسا. يوم الأحد الأول من أبريل — في وقت القداس الكبير — وصل إلى أبواب «لافيل ديو» رأى زوجته «هيلينا» تجري نحوه، شم عطر جسدها وهو يعانقها وسمع المخمل في صوتها وهي تقول له بنعومة «ها قد عُدت!»

قالت بنعومة: «ها قد عُدت!».

٢٥

استمرت الحياة في «لافيل ديو» بسيطة، يحكمها النظام والهدوء. واحد وأربعون يومًا و«هيرفي جونكور» مستسلم لتيارها. في اليوم الثاني والأربعين فتح درجًا في خزانته، أخذ خريطة اليابان وفتحها، وأخرج القصاصة الصغيرة التي كان قد أخفاها بها قبل شهور. حروف مرسومة فوق بعضها. حبر أسود. جلس على مكتبه وهو يُحدِّق فيها طويلًا.

وجد «بالدابيو» في مقهى «فيردون» على طاولة البلياردو. كان يلعب منفردًا. ضد نفسه. لعبة غريبة. كان يسميها لعبة السليم ضد المعوق. يضرب ضربة عادية، وبعدها ضربة مستخدما يدًا واحدة ويقول: «يوم يفوز المعوق، سأترك هذه المدينة.»

كان المعوق يخسر منذ سنوات.

– «لا بد أن أجد شخصًا يستطيع أن يقرأ اليابانية يا بالدابيو.»

لعب المعوق لعبة ثم أعاد وضع الكرات.

– «اسأل «هيرفي جونكور» ... إنه يعرف كل شيء.»

– «لا أفهم كلمةً واحدة.»

– «أنت الياباني الوحيد هنا.»

– «لا أفهم كلمة واحدة.»

انحنى اللاعب السليم على عصا البلياردو ولعب لعبةً جيدة.

– «ليس هناك إذَن سوى «مدام بلانش». لديها محل ملابس في نيم. فوق المحل ماخور. تملكه أيضًا سيدةٌ غنية يابانية.»

– «يابانية ...؟ وكيف جاءت إلى هنا؟»

– «لا تسألها عن ذلك إذا كنت تريد خدمة منها.»

خسر اللاعب المعوق إصابة ثلاثية تقدر بأربع عشرة نقطة.

٢٦

قال «هيرفي جونكور» لزوجته «هيلينا» إن عليه أن يذهب إلى «نيم» في عمل، وإنه سيعود في نفس اليوم. صَعِد إلى الدور الأول فوق محل الملابس، في رقم ١٢ شارع «موسكات» وسأل عن «مدام بلانش». تركوه منتظرًا طويلًا. الغرفة مجهزة، كأن هناك حفلًا بدأ منذ سنوات ولم ينتهِ بعد. كل البنات فرنسياتٌ صغيرات السن. عازف بيانو يعزف ألحانًا تبدو روسية، النغمة هادئة ... وفي نهاية كل مقطوعة يُجري يده اليمنى في شعره ويهمهم: «هكذا إذن!»

٢٧

انتظر «هيرفي جونكور» ساعتَين، ثم أخذوه. عبر ممرًّا طويلًا إلى الباب الموجود في نهايته. فتحه ودخل.

كانت مدام «بلانش» جالسة في مقعدٍ كبير بجوار النافذة ترتدي «كيمونو» خفيفًا، لونه أبيض تمامًا. في أصابعها خواتم من الزهور الصغيرة الزرقاء. شعرها أسودُ لامع. ملامحُ شرقية. كاملة الأناقة.

– «ما الذي يجعلك تعتقد أنك غني بما يكفي لأن تأتي معي إلى السرير؟»

ظل «هيرفي جونكور» واقفًا أمامها. قبَّعتُه في يده.

– «أود أن تؤدي خدمة لي ... ولا يهم الثمن.»

وتناول من الجيب الداخلي لسترته قصاصةً صغيرة مطوية أربع مراتٍ وأعطاها لها.

– «أود أن أعرف المكتوب فيها.»

لم تحرك مدام «بلانش» عضلةً واحدة، انفرجَت شفتاها قليلًا بفجر ابتسامة.

– «أرجوكِ يا سيدتي.»

لم يكن هناك سببٌ واحد يجعلها تفعل ذلك. لكنها تناولَت القصاصة. فتحَتها ونظرت إليها. رفعَت عينَيها فيه ثم خفضَتهما ثانية. طوت القصاصة ببطء، وعندما انحنت إلى الأمام لكي تُعطيَها له انزاحَ الكيمونو قليلًا عن صدرها. لاحظ «هيرفي جونكور» أنها لم تكن ترتدي شيئًا تحته. وأن بشرتها بيضاءُ ممتلئة بالحيوية.

– «عُد وإلا فسأموت.»

قالت ذلك بصوتٍ بارد وهي تنظر في عينَيه دون أن يبدو عليها أي تعبير.

أعاد «هيرفي جونكور» القصاصة إلى جيبه الداخلي.

– «شكرًا.»

هز رأسه. استدار. اتجه صوب الباب وهو على وشك أن يترك بضع ورقاتٍ مالية على الطاولة.

– «انسَ ذلك.»

تردد «هيرفي جونكور» لحظة.

– «أنا لا أتكلم عن النقود، بل عن المرأة. انسَها. وهي لن تموت. وأنت تعرف ذلك جيدًا.»

ودون أن يلتفت، وضع «هيرفي جونكور» النقود على الطاولة.

فتح الباب ... وانصرف.

٢٨

قال «بالدابيو» إن بعض الرجال يأتون أحيانًا من «باريس» لممارسة الجنس مع مدام «بلانش»، وعندما يعودون إلى العاصمة يضعون في عُروة ثيابهم المسائية زهرةً زرقاء ... أو زهرتَين ... نفس الزهور التي تلبسها مثل الخواتم في أصابعها.

٢٩

هذا الصيف، ولأول مرة في حياته أخذ «هيرفي جونكور» زوجته إلى الريفييرا. نزلا لمدة أسبوعَين في أحد فنادق «نيس»، معظم روَّاده من الإنجليز ومشهور بإحياء الأمسيات الموسيقية. كانت «هيلينا» قد أقنعَت نفسها بأنها في منطقةٍ جميلة كتلك، يمكن أن تحمل

من «هيرفي جونكور» بالطفل الجميل الذي كانا ينتظرانه منذ سنينَ طويلة بلا جدوى. قرَّر الاثنان أنه سيكون ولدًا. وسيكون اسمه «فيليب». لم يكن الجو الاجتماعي في ذلك المجتمع يهمهما، هما هنا للاستمتاع فقط، وعندما يكونان على انفراد بغرفتهما يسخران من الشخصيات الغريبة التي يصادفانها. ذات مساء التقَيا بتاجر فراء في الأمسية الموسيقية. رجل بولندي قال إنه سافر إلى اليابان.

في ليلتهما الأخيرة هنا، حدث أن استيقظ «هيرفي جونكور» قبل أن يطلع النهار واقترب من سرير «هيلينا». وعندما فتحَت عينَيها سمعته يهمهم ...

«سأظل أحبك إلى الأبد.»

٣٠

في أوائل سبتمبر، عقد صانعو الحرير في «لافيل ديو» اجتماعًا لوضع خطة للعمل. كانت الحكومة قد أرسلَت عالمًا بيولوجيًّا شابًّا إلى «نيم» ليجري دراسة عن الوباء الذي جعل بيض دود الحرير الفرنسي عديم الفائدة. اسمه «لويس باستير». وكان يستخدم ميكروسكوبًا يمكنه من رؤية ما لا يرى. وكان يُقال إنه حقق نتائج غير عادية. جاءت الأخبار من اليابان أن حربًا أهلية كانت على وشك الحدوث هناك ... تثيرها القوات المعارضة لفتح البلاد أمام الأجانب. القنصلية الفرنسية التي أُنشئَت هناك في يوكوهاما حديثًا، بعثَت برسائل لا تشجع على العلاقات التجارية مع الجزيرة في الوقت الحاضر. وكان من المقترح الانتظار حتى الوقت المناسب.

ولأنهم حَذِرون بطبعهم، وواعون بالتكلفة الضخمة لتلك المهام السرية إلى اليابان، كان عددٌ كبير من أعيان «لافيل ديو» مع رحلات «هيرفي جونكور» إلى اليابان والاعتماد هذا العام على شحنات البيض المستوردة من الشرق الأوسط بواسطة كبار التجار. «بالدابيو» كان يستمع إلى ما يقولون ولا يتكلم. وعندما كان يجيء دوره في الحديث، فإن كل ما يفعله هو أن يضع عصاه على الطاولة وينظر إلى الرجل الذي يجلس أمامه ... وينتظر.

«هيرفي جونكور» كان على علم بأبحاث «باستير»، قرأ الرسائل القادمة من اليابان ... ولكنه كان يرفض دائمًا أن يُعلق عليها. إنه يُفضل أن يُكرس وقته كله لتجويد خطته لإنشاء الحديقة المحيطة بمنزله. وفي ركنٍ خفي من مكتبه، كان يحتفظ بقصاصة ورق مطوية أربع مرات، عليها حروف مرسومة تحت بعضها بالحبر الأسود. وهو الآن لديه حسابٌ كبير في البنك وينعم بحياة هادئة ويغذي الوهم المشروع بالأبوة الوشيكة.

عندما نظر إليه «بالدابيو» كان ما قاله «هيرفي جونكور»: «أنت الذي يقرر يا بالدابيو.»

٣١

غادر هيرفي جونكور متجهًا إلى اليابان في بداية أكتوبر. عبر الحدود الفرنسية بالقرب من «ميتز»، قطع «فورتمبرج» و«بافاريا»، دخل النمسا، واصل إلى فيينا و«بودابست» بالقطار ليكمل من هناك حتى «كييف»، قطع ألفَي كيلومتر من السهول الروسية على ظهر حصان، عبر الأورال، دخل سيبيريا، أكمل لمدة أربعين يومًا حتى وصل إلى بحيرة «بايكال» المعروفة محليًّا باسم «الأخيرة»، هبط مع مجرى نهر «آمور»، التفت حول الحدود الصينية حتى المحيط، وعندما وصل إلى المحيط وقف في ميناء «سابيرك» لمدة عشرة أيام حتى نقلَته سفينة تهريب هولندية إلى «كيب تيرايا» على الساحل الغربي لليابان.

وجد هناك بلدًا في حالة فوضى ينتظر حربًا لا يمكن أن تنشب. سافر عدة أيام دون حاجة للرجوع إلى حساباته الحذرة؛ حيث إن خريطة توزُّع القوى حوله وشبكات السيطرة يبدو أنها قد ذابت انتظارًا وترقبًا لانفجار سيتركها مرتبكة تمامًا.

في «شيراكاوا» التقى بالرجل الذي يأخذه لمقابلة «هاراكي» بعد يومَين على ظهر الخيل، وصلَا إلى مشارف القرية. دخل «هيرفي جونكور» على قدمَيه لكي تسبقَه أخبار قدومه.

٣٢

أخذوه إلى واحد من آخر المنازل في القرية، مرتفع، يقع على حدود الغابة. هنا خمسة من الخدم في انتظاره. ترك متاعه لهم وتوجه إلى الشرفة. قصر «هاراكي» في آخر القرية يظهر من هنا، وواضح أنه أكبر من كل المنازل الأخرى قليلًا. أشجار الأرز الضخمة المحيطة به تحفظ عزلته. واصل «هيرفي جونكور» النظر إليه وكأنْ لا شيء آخر يقف بينه وبين الأفق.

وأخيرًا رأى.

هكذا فجأة.

السماء فوق القصر مرقَّشة بآلاف الطيور وكأن الأرض قد تفجَّرت عنها.

طيور من كل نوع ولون تطير في ذعرٍ مجنون. تُغني وتصرخ. أجنحتها ألعاب نارية، سُحُب من اللون تصطدم بالضوء، موسيقا شاردة تهرب في السماء.

ابتسم «هيرفي جونكور».

٣٣

بدأَت القرية تعجُّ بالحركة مثل كثيب نملٍ أصابه الفزع. الجميع يجري هنا وهناك وهو يصرخ ويراقب الطيور الهاربة. على مدى سنين عديدة كانت تلك الطيور قرة عين صاحبها ... هي الآن سخرية تطير!

ترك «هيرفي جونكور» منزله وعاد ليتجول في القرية ناظرًا أمامه بكل ما يستطيع من هدوء. يبدو أنه لا أحد يلاحظه، بينما هو ذاهل عن كل ما حوله.

كان «هيرفي جونكور» خيطًا من الذهب في نقش سجادة نسجَتها يدٌ مجنونة. عبر الجسر الممتد فوق النهر، وصل إلى أشجار الأرز العالية ودخل في ظلها وخرج مرةً أخرى، رأى أمامه القفص الكبير خاليًا، أبوابه مفتوحة. وأمام القفص امرأة، لم ينظر «هيرفي جونكور» حوله وإنما واصل سيره الوئيد ... لم يتوقف إلا عندما أصبح أمامها.

لم يكن لعينَيها تلك السحبة الشرقية، وجهها وجه فتاة صغيرة. خطا نحوها خطوة، مد يده وفتحها. في راحة كفه قصاصةٌ مطوية أربع مرات. رأتها فأضاءت ابتسامة كل وجهها. وضعَت يدها فوق يد «هيرفي جونكور»، أمسكَت بها برقَّة، توقفَت لحظة، ثم سحبَتها بين أصابعها بتلك القصاصة التي طافت بالعالم. وبمجرد أن خبَّأتها في طية من ثوبها، جاء صوت «هاراكي»: «مرحبًا صديقي الفرنسي.»

كان يقف على بعد خطوات قليلة. كيمونو داكن اللون. شعرٌ أسودُ ملموم بعناية على الرقبة. اقترب. راح يتأمل القفص وينظر إلى الأبواب المفتوحة واحدًا تلو الآخر.

«ستعود ... من الصعب دائمًا أن تقاوم إغراء العودة، أليس كذلك؟»

«هيرفي جونكور» لم يرُد. نظر «هاراكي» إلى عينَيه ثم قال له بهدوء: «تعال معي.»

تبعه «هيرفي جونكور»، بعد خطواتٍ قليلة استدار وانحنى للفتاة.

«أتمنى أن أراكِ مرةً أخرى ... قريبًا.»

واصل «هاراكي» سيره. قال: «هيَّا! إنها لا تعرف لغتك.»

٣٤

في ذلك المساء دعاه «هاراكي» إلى منزله. كان هناك عددٌ قليل من رجال القرية، ونساء في قمة الأناقة، وجوههن مصبوغة بالأبيض وبألوانٍ أخرى مبهرجة. الكل يشرب «الساكي» ويدخن تبغًا له رائحة نفاذة مخدرة تتصاعد من غلايين خشبية. ظهر بهلوانات، وراح

رجل يقلد الطيور والحيوانات فيثير الضحك. ثلاث نساء يعزفن على آلاتٍ وترية وعلى وجوههن ابتساماتٌ ثابتة. كان «هاراكي» يجلس في مكان الشرف يرتدي ثيابه الداكنة ... عاري القدمين، وإلى جواره المرأة التي لها وجه فتاة في ثوب من الحرير اللامع.

«هيرفي جونكور» في الناحية الأخرى من الغرفة، تحاصره رائحة عطر النساء المدوِّخة، النساء يحطن به، ويبتسم هو للرجال الذين يتبادلون النوادر معه ... رغم أنه كان يشعر بالحرج لأنه لا يفهم لغتهم.

من وقتٍ لآخر يبحث عن عينَيها ... وهي تبحث عن عينَيه. وتجدهما. بينهما رقصة ما تسري ... سرية وغير مشبعة. راح «هيرفي جونكور» يرقص تلك الرقصة حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم نهض، استأذن بالفرنسية، احتال ليتخلص من امرأة كانت مصرة على صحبته، شق طريقه وسط سُحب الدخان واللغة غير المفهومة. وذهب. قبل أن يترك الغرفة ألقى نظرةً أخيرة نحوها ... أما هي فكانت تُحدق فيه بأعمق العيون صمتًا منذ عصور.

طاف «هيرفي جونكور» بالقرية يتنفس هواء الليل المنعش تاركًا نفسه للممرات الصاعدة على التل. وعندما وصل إلى منزله لاحظ مصباحًا مضاءً يتأرجح خلف الجدران الورقية. دخل. وجد أمامه امرأتَين.

فتاة شرقية في كيمونو أبيض اللون ... بسيط. ووجدها. عيناها بهجة محمومة. لم تترك له وقتًا لرد فعل. اقتربَت. تناولَت إحدى يدَيه وقرَّبَتها من وجهها، مسَّتها بشفتَيها برفق ... ثم قبضَت عليها بإحكام ووضعَتها على يدَي الفتاة المجاورة لها ... واحتفظَت بها لحظة حتى لا تهرب. وأخيرًا سحبَت يدها ... تراجعَت خطوتَين، أخذَت المصباح، ركَّزت عينَيها لحظة على عينَي «هيرفي جونكور» ... ثم أسرعَت.

كان المصباح برتقالي اللون.

اختفت في الليل ... كانت ضوءًا خفيفًا ينسحب في هدوء.

٣٥

لم يكن هيرفي جونكور قد رأى تلك الفتاة من قبل، والحقيقة أنه لم يرَها فعلًا في تلك الليلة. كان يشعر بجمال جسدها في تلك الغرفة المظلمة، تعرَّف على يدَيها ... وفمها ... مارس الجنس معها ساعاتٍ طوالًا مستخدمًا إيماءاتٍ جديدة عليه، تاركًا نفسه يتعلم إيقاعًا مطمئنًّا غير متعجل ... لم يكن يعرفه. لم يكن من الصعب عليه في الظلام أن يمارس الجنس مع تلك الفتاة ... وليس معها.

وقبل أن يتنفس الصبح بقليل، استيقظَت الفتاة ... ارتدَت الكيمونو الأبيض ... وانصرفَت.

٣٦

في الصباح، وجد «هيرفي جونكور» أحد رجال «هاراكي» ينتظره أمام المنزل. كان معه خمس عشرة شريحة من لحاء شجر التوت يُغطيها بيضُ دود الحرير تمامًا. بيضٌ دقيق الحجم عاجي اللون. فحص «هيرفي جونكور» الشرائح واحدةً واحدة ثم تفاوض على الثمن ودفع فيها قِطعًا من الذهب.

وقبل أن ينصرف، أخبره «هيرفي جونكور» أنه يريد أن يقابل «هاراكي». هز الرجل رأسه. فهم «هيرفي جونكور» من الإيماءة أن «هاراكي» كان قد رحل مع بطانته في الصباح الباكر، ولا أحد يعرف متى يعود. قطع «هيرفي جونكور» القرية كلها حتى منزل «هاراكي». لم يجد هناك سوى الخدم الذين كانوا يجيبون عن كل سؤال بهز رءوسهم. دقق في كل شيء حوله ولكنه لم يجد شيئًا يمكن أن يكون رسالة له. ترك المنزل، وفي طريقه عائدًا إلى القرية مَرَّ بالقفص الكبير.

كانت أبوابه قد أُغلقَت مرةً أخرى وبداخله مئات الطيور المرفرفة ... محجوبةً عن الفضاء.

٣٧

انتظر «هيرفي جونكور» يومَين آخرَين توقعًا لأي رسالة ثم مضى. وبعد مسيرة نصف ساعة تقريبًا من القرية سمع صوتًا له رنينٌ فضي غريب. نظر حوله فاستطاع أن يميز عددًا كبيرًا من البقع السوداء الكامنة بين أوراق الشجر. عدد كبير من الطيور الهاجعة. ودون أن يُعطيَ أيَّ تفسيرٍ للرجلَين اللذَين يرافقانه، جذب سير اللجام وأخرج مسدَّسه وأطلق ست رصاصاتٍ في الهواء.

فوجئ بها سربُ الطيور فانطلَق في الهواء مثل سحابة دخانٍ تنطلق من منزلٍ مشتعل. انطلق سريعًا وبدا بعيدًا في لمح البصر وكانت السماء مظلمة.

٣٨

بعد ستة أيام كان «هيرفي جونكور» على ظهر سفينة تهريب هولندية في «تاكا أوكا»، حملَته إلى «سابيرك»، ومن هناك التف حول الحدود الصينية حتى بحيرة «بايكال»، قطع أربعة

آلاف كيلومتر من أراضي «سيبيريا»، عبر «الأورال» وواصل عائدًا إلى «كييف» وعبر كل أوروبا بالقطار من شرقها إلى غربها، وبعد ثلاثة شهور وصل إلى فرنسا. يوم الأحد الأول من أبريل في وقت القُداس الكبير، وصل إلى بوابات «لافيل ديو»، أوقف العربة، وظل جالسًا بلا حركة خلف الستائر المُسدَلة بضع دقائق. بعد ذلك نزل وأكمل على قدمَيه خطوة خطوة ... كان مُرهقًا إلى أبعد الحدود.

سأله «بالدابيو» إن كان قد رأى الحرب.

قال: «ليست تلك التي كنتُ أتوقعها.»

في تلك الليلة ذهب إلى فراش «هيلينا» ومارس معها الجنس دون صبر، لدرجة أنها خافت ولم تستطع أن تمسك دموعها، وعندما لاحظ ذلك افتعلَت ابتسامة.

وقالت: «ذلك لأنني سعيدة جدًّا.»

٣٩

سلَّم «هيرفي جونكور» لمُربِّي الدود في «لافيل ديو»، بعد ذلك لم يظهر في المدينة لعدة أيام، لدرجة أنه أهمل زيارته اليومية لمقهى «فيردون» وهي التي كانت عادة مستقرة. في أوائل مايو، أثار بين الناس دهشةً عامة عندما اشترى منزل «جاك بيريك» المهجور، ذلك المنزل الذي كان صاحبه قد أمسك عن الكلام يومًا بعد يوم ولم ينطق بكملةٍ أخرى حتى يوم وفاته. كان الكل يظن أن «هيرفي جونكور» ينوي أن يجعل ذلك المنزل مختبرًا جديدًا له. لم يحاول أن يشرع في تنظيفه. كان يذهب إلى هناك من وقتٍ لآخر ويجلس وحيدًا ولا أحد يعرف لماذا. وفي أحد الأيام أخذ «بالدابيو» معه.

سأله: «هل تعرف لماذا توقف جان بيريك عن الكلام؟»

قال: «وتلك أحد الأشياء الكثيرة التي لم يقُلها.»

مرت السنوات. الصور كما هي على الحائط. الآنية على المصفاة بجوار الحوض. المنظر ليس جميلًا، و«بالدابيو» من جانبه كان يُفضل أن يترك هذا المكان، ولكن «هيرفي جونكور» يواصل تحديقه في تلك الجدران العفنة، المجردة من الحياة، مشدوهًا. واضحٌ أنه كان يبحث عن شيءٍ ما.

قال: «أحيانًا تُبدي لك الحياة جانبًا منها ... يتركك بلا شيء تقوله.» «لا شيء أكثر ... أبدًا.»

لم يكن «بالدابيو» من الذين يناقشون شيئًا مناقشةً جادَّة، حدَّق مستغربًا في فراش «جان بيريك».

«ربما كان من الممكن أن يفقد أي إنسان صوته في منزل كئيب كهذا.»

عدة أيام يواصل هيرفي جونكور الانسحاب من الحياة. نادرًا ما يظهر في المدينة. وقته كله في العمل. يخطط للحديقة التي سينفذها عاجلًا أو آجلًا. أمامه لوحة، أكثر من لوحة يرسم عليها مخططاتٍ غريبة تشبه الآلات ذات مساء سألته «هيلينا»: «ما هذا؟»

– «قفص.»

«قفص؟»

– «نعم.»

– «من أجل ماذا؟»

عيناه على المخطَّطات المرسومة أمامه.

– «تَملئينه بالطيور، بأكبر عدد من الطيور، ويوم أن يحدثَ لكِ شيءٌ جيد تفتحينه وتُراقبين الطيور وهي تطير.»

٤٠

في أواخر يونيو، ذهب «هيرفي جونكور» وزوجته إلى «نيس». استأجرا فيلَّا صغيرة على الشاطئ بناءً على رغبة «هيلينا» ... التي كانت مقتنعةً بأن الهدوء في ذلك المكان البعيد لا بد أن ينجح في إزالة حالة الاكتئاب التي استولَت على زوجها، كانت تعتقد أنها حالةٌ من حالاته ... وسوف تزول وكانت تشعر بالرضا لذلك.

ثلاثة أسابيع من السعادة والراحة الهادئة. عندما يكون الجو معتدلًا يستأجرون مركبة يجرها حصان لاستكشاف القرى المختفية وسط التلال، من هنا يبدو البحر وكأنه ستارةٌ خلفية في أحد المسارح، مصنوعة من الورق الملون، وأحيانًا يذهبان إلى المدينة للاستمتاع بحفلٍ موسيقي أو حضور مناسبةٍ اجتماعية.

وذات مساء، قَبِلا دعوة بارون إيطالي لحضور حفل عيد ميلاده الستين وعشاء رسمي في فندق سويسري. وصلَا إلى مكان «الكعكة»، وعندما نظر «هيرفي جونكور» إلى «هيلينا» بالمصادفة، كانت تجلس على الجانب الآخر من الطاولة بجوار رجلٍ إنجليزي أنيق يضع في عروة سترته الطويلة مجموعةً صغيرة من الزهور الزرقاء.

لاحظ «هيرفي جونكور» أن الرجل كان يميل ناحية «هيلينا» ويهمس بشيءٍ ما في أذنها. انفجرَت هيلينا ضاحكة. أجمل ضحكة. كانت وهي تضحك تميل قليلًا نحو الرجل الإنجليزي وهي تلمس كتفه بشعرها في إيماءةٍ خالية من الكلفة تمامًا ... وإن كانت تُوحي

بتعمُّد مربك. نظر «هيرفي جونكور» في طبقه. لاحظ، دون أدنى شك، أن يده التي كانت تقبض بشدة على ملعقة الحلوى تهتز.

بعد ذلك، في غرفة التدخين، اقترب «هيرفي جونكور» الذي كان يترنح على أثر كمية الكحول التي شربها، من رجل يجلس وحيدًا يُحدق أمامه شارد النظرات، مال نحوه وقال: «لديَّ شيء مهم أود أن أقوله لك يا مسيو ... كلنا مقززون ... كلنا رائعون ... ومقززون ...»

الرجل من «درسدن»، تاجر عُجول ويعرف قليلًا من الفرنسية.

انفجرت في ضحكٍ صاخب وراح يهز رأسه وبدا كأنه لن يتوقف عن ذلك.

امتدت إقامة «هيرفي جونكور» وزوجته في «الريفييرا» حتى أوائل سبتمبر. تركا الفيلَّا الصغيرة آسفَين ... كانت دعوة كُلٍّ منهما الآخر للحب قليلة بين تلك الجدران.

٤١

ذهب «بالدابيو» إلى منزل «هيرفي جونكور» في الصباح. مبكرًا، جلسا في الرواق.

«لا تشبه الحديقة بالضبط ... أليس كذلك؟»

– «أنا لم أبدأ بعدُ يا «بالدابيو».»

– «هكذا إذن؟»

بالدابيو ليس من عادته أن يدخن في الصباح. أخرج غليونه، ملأَه وأشعَله.

«التقَيتُ بـ «مسيو باستير». يعرفُ ما يجب عملُه وقد أطلَعني على ذلك. إنه يستطيع أن يميز البيض المصاب من السليم. لا يستطيع أن يعالجه ولكن يمكنه فرز البيض السليم ... ويقول إن ثلاثين بالمائة تقريبًا مما ننتجه سليم.»

صمت.

«يقولون إن الحرب قامت في اليابان. هذه المرة جد.

الإنجليز يسلِّحون الحكومة والهولنديون يسلِّحون المتمردين ... ويبدو أن هناك اتفاقًا على ذلك. يُرخون لهم الحبل ... وبعد ذلك يستولون على كل شيء ويقتسمونه بينهم ... القنصلية الفرنسية تراقب، كل ما يفعلونه هو أن يراقبوا ... لا يعرفون سوى إرسال الرسائل عن المذابح، وعن الأجانب الذين يذبحون الشياه.»

صمت.

«هل بقي هناك قهوة؟»

صب له «هيرفي جونكور» بعض القهوة.

صمت!

«الإيطاليان ... بيير والرجل الآخر، اللذان ذهبا إلى الصين في العام الماضي عادا ومعهما بيض ... كمية كبيرة ... خمسة عشر ألف أوقية ... الناس في «بوليت» أيضًا اشترَوا بعض البيض ... يقولون إنه نوعيةٌ ممتازة. سوف يذهبون مرةً أخرى بعد شهر ... لديهم النية لشراء كمياتٍ كبيرة، السعر معقول، الأوقية بأحد عشر فرنكًا ... ومضمونة ... يمكن الاعتماد عليهم. وراءهم تنظيم قوي ويبيعون البيض لنصف أوروبا ... يمكن أن تثق بهم ... أقول لك.»

صمت.

«لستُ أدري ... ربما أمكننا نحن، بواسطة البيض الذي لدينا وجهد «باستير» ... إلى جانب ما يمكن أن نشتريه من الإيطاليين. يمكن أن نستمر. في المدينة يقولون إن من الجنون أن نرسلك إلى هناك مرةً أخرى ... ومع كل تلك النفقات ... يقولون إنها مخاطرة ... وهم على حق ... في المرة الماضية كان الأمر مختلفًا ... أما الآن فليس من السهل أن تعود حيًّا.»

صمت.

«الحقيقة أنهم لا يريدون أن يخسروا البيض ... وأنا لا أريد أن أخسرك.»

نظر «هيرفي جونكور» لفترة ... محدقًا في الحديقة التي ليس لها وجود بعد، ثم فعل شيئًا لم يسبق له أن فعلَه من قبل. قال: «أنا ذاهب إلى اليابان يا «بالدابيو»، ذاهب لشراء البيض من مالي الخاص إن كان لا بد من ذلك. كل ما يجب عليك أن تُقرره إذا كنتُ سأبيعه لك أو لغيرك.»

لم يكن «بالدابيو» يتوقع ذلك. كأنه يرى المعوق ينتصر عليه بضربةٍ أخيرة من فوق أربع وسائد ... حسبة مستحيلة!

٤٢

قال «بالدابيو» لمُربي الحرير في «لافيل ديو» إن «ياستير» لا يمكن الاعتماد عليه، وإن الإيطاليين قد نصَبا على نصف أوروبا بالفعل، وإن الحرب في اليابان سوف تنتهي قبل الشتاء وإن القديسة آجنس قد جاءته في المنام وقالت له إنهم جميعًا مغفَّلون، ولكن «هيلينا» كانت الإنسان الوحيد الذي لا يمكنه أن يكذب عليه.

«ألا بد أن يذهب يا «بالدابيو»؟»

«لا.»

«ولماذا إذن؟»

«لا أستطيع أن أمنعه، وفي حالة إصراره على الذهاب فكل ما أستطيع أن أفعلَه هو أن أعطيه سببًا آخر للعودة.»

ثم جمع «بالدابيو» صانعي الحرير في «لافيل ديو» وشاركوا في تمويل المهمة رغم أن ذلك كان على مضض. بدأ «هيرفي جونكور» استعداداته، وكان جاهزًا للرحيل قبل بداية أكتوبر. ومثل كل عامٍ ساعدَته «هيلينا»، لم تسأله عن شيء واحتفظت بكل القلق لنفسها. المساء الأخير فقط، وبعد أن أطفأَت المصباح وجدَت لديها القدرة في لكي تقول له: «عِدني أنك ستعود.»

ثم بصوتٍ أكثر ثباتًا: «عِدني أنك ستعود.»

أجابها «هيرفي جونكور» في الظلام:

«أَعِدُك.»

٤٣

في العاشر من أكتوبر ١٨٦٤، انطلَق «هيرفي جونكور» في رحلته الرابعة إلى اليابان، عبر الحدود الفرنسية بالقرب من «ميتز»، قطع «فورتمبرج» و«بافاريا»، دخل النمسا، واصل إلى «فيينا» و«بودابست» بالقطار ليكمل من هناك إلى «كييف»، قطع ألفَي كيلو متر في السهول الروسية على ظهر حصان، عبر «الأورال»، دخل «سيبيريا»، استمر أربعين يومًا حتى وصل إلى بحيرة «بايكال» المعروفة محليًّا باسم «المقدسة». نزل مع مجرى نهر «آمور»، التف حول الحدود الصينية حتى المحيط، وعندما وصل إلى المحيط توقف في ميناء «سابيرك» لمدة ثمانية أيام، إلى أن حملَته سفينة تهريب إلى «كيب تيرانا» على الساحل الغربي لليابان. وباستخدام طرقٍ ثانوية عبْر أقاليم «إيشيكاوا» و«كوياما» و«نيجاتا» على ظهر حصان ثم دخل إقليم «فوكوشيما».

عندما وصل إلى «شيراكاوا» وجد المدينة شبه مدمَّرة كما رأى حامية من قوات الحكومة تعسكر وسط الخرائب.

التفَّ شرق المدينة وانتظر رسول «هاراكي» خمسة أيام دون جدوى. وعند فجر اليوم السادس اتجه شمالًا ناحية التلال. كان معه خرائط ورسومٌ توضيحيةٌ قليلة وما بقي في

ذاكرته. بعد تجوال عدة أيام، تعرَّف على نهر ... ثم غابة ... ثم طريق. نهاية الطريق وجد قرية «هاراكي» ... القرية محترقة تمامًا ... الأشجار ... المنازل ... كل شيء ...

لا أثر على الإطلاق.

لا حياة.

توقف «هيرفي جونكور» بلا حَراك، يُحدق في تلك المجمرة الكبيرة. وراءه طريق يمتد ثمانية آلاف كيلومتر. أمامه لا شيء ... فاجأَته لمحة من نهاية العالم ... ذلك الشيء الغائب في الغموض.

٤٤

أمضى «هيرفي جونكور» ثلاث ساعات بين أطلال المدينة، لم يستطيع أن يتركها رغم أنه كان يعرف أن كل ساعة يضيعها هنا قد تعني كارثة بالنسبة له ولكل «لافيل ديو». ليس معه بيض حرير. وحتى لو استطاع أن يجد كمية منه فلم يعُد لديه سوى شهرَين ليقطع العالم عائدًا قبل أن يفقسَ منه في الطريق ويتحول إلى كتلة من الدود العديم الفائدة، تأخير يوم واحد قد يعني النهاية. يعرف ذلك جيدًا ولكنه لا يستطيع أن يخلع نفسه. لذا ظل هناك إلى أن حدث شيءٌ مثير دون أسباب أو مقدمات. فجأة برز صبي من اللامكان يرتدي الأسمال، وتمهَّل وهو ينظر إلى ذلك الغريب خائفًا.

«هيرفي جونكور» لم يتحرك. خطا الصبي بضع خطواتٍ أخرى ثم توقف. كلاهما ينظر إلى الآخر تفصلهما خطواتٌ قليلة. ثم تناول الصبي شيئًا من بين أسماله البالية وهو يرتعد من الخوف. اقترب من «هيرفي جونكور» وأعطاه له. فردة قفَّاز. وبين خياله، رأى «هيرفي جونكور» بحيرةً وثوبًا برتقالي اللون ملقًى على الأرض. كانت الأمواج تصطدم بالشاطئ وكأنها آتيةٌ من البعيد. تناول القفَّاز وابتسم للولد.

«أنا الفرنسي ... رجل الحرير ... الفرنسي ... هل تفهم؟ أنا هو.» توقفَت رجفة الصبي.

«رجل فرنسي».

عينا الصبي مليئتان بالدموع ولكنه يضحك. ثم بدأ يتكلم باندفاع ... كان يصيح ... ثم ركض وهو يشير إلى «هيرفي جونكور» بأن يتبعه. اختفى داخل الغابة في مَمرٍّ ضيق يُفضي إلى الجبال.

«هيرفي جونكور» لم يتحرك. راح يقلب القفاز بين يدَيه وكأن ذلك هو كل ما تبقَّى من عالمٍ زائل يدرك أن الوقت ليس متأخرًا ... وأنْ لا خيار لديه.

وقف. عاد إلى حصانه ببطء. امتطاه. ثم أتى فعلًا غريبًا. غمز بكعبَي حذائه جانبي الحصان. ومضى نحو الغابة ... يتبع الصبي إلى ما بعد نهاية العالم.

٤٥

سافرا شمالًا عدة أيام عبر الجبال. لم يكن «هيرفي جونكور» يعرف إلى أين ... فترك الصبي يقوده ويرشده دون أن يحاول أن يسأل. وصلَا عند قريتَين. جميع السكان مختبئون داخل المنازل. النساء هربَت. كان مع الصبي قُبَّرة تلغط وراءهما بإشاراتٍ غير مفهومة. كان في الرابعة عشرة من العمر، ينفخ طوال الوقت في مزمار من الغاب فتخرج منه كل أصوات الطيور في العالم. يبدو مثل شخصٍ مشغول بأسعد عمل في حياته.

في اليوم الخامس وصلَا إلى قمة التل، حدد الصبي نقطة أمامه على الطريق تؤدي إلى الوادي. تناول «هيرفي جونكور» منظاره المقرب فرأى أمامه ما يشبه المركب؛ رجالٌ مسلحون، نساءٌ وأطفال، عرباتٌ ودوابُّ. قرية بأكملها تتحرك. رأى «هاراكي» على ظهر حصان يرتدي ثيابًا سوداء.

٤٦

انزلَق الصبيُّ من على ظهر الحصان. نظر حوله ثم أسرع. قبل أن يختفي وسط الأشجار التفَت خلفه بحثًا عن إشارة أو إيماءة تدُل على أنها كانت رحلةً ممتعة!

قال له «هيرفي جونكور»: كانت رحلةً ممتعة!

كان «هيرفي جونكور» يتبع القافلة عن بُعد طوال اليوم. وعندما وجد أنها توقفَت بالليل واصل مسيرته حتى اقترب منه ثلاثة رجالٍ مسلحين. تسلموا قياد حصانه ومتاعه واقتادوه إلى خيمة. انتظر طويلًا ... ثم ظهر «هاراكي». لم يُلقِ إليه بتحية. لم يجلس.

«كيف وصلتَ إلى هنا أيها الفرنسي؟»

لم يرُد «هيرفي جونكور».

«أسألك ... مَن الذي أتى بك إلى هنا؟»

صمت.

«لا شيء لك هنا. إنها الحرب فقط. وهي ليست حربك. انصَرِف.»

أخرج «هيرفي جونكور» كيسًا صغيرًا من الجلد، فتحه، وأفرغ ما فيه على الأرض. قطع ذهبية.

«الحرب لعبة مكلفة، وأنت في حاجةٍ للمال ... كما أنا إليك.»
... لم ينظر إلى الذهب المنثور على الأرض.
استدار على عقبَيْه ومضى.

٤٧

قضى «هيرفي جونكور» الليلة على حافة المعسكر. لم يكلمه أحد. ولا يبدو أن أحدًا يراه. الكل نائم بجوار النار والرماد. هناك خيمتان فقط. وبجوار إحداهما رأى «هيرفي جونكور» المحفَّة خالية، معلَّقة على زواياها الأربع أقفاص صغيرة – طيور ... ومن شباك الأقفاص تتدلى أجراسٌ ذهبية. كانت تجلجل خفيفًا في نسيم الليل.

٤٨

عندما قام من نومه وجد القرية كلها تستعد للرحيل. طُوِيَت الخيام. ولكن المحفَّة هناك ... مفتوحة. الناس يصعدون إلى المركبات صامتين. وقف ونظر حوله جيدًا ... كانت العيون التي وقع عليها بصره ذات سحبةٍ شرقية ... وكانت تنخفض في الحال. رأى رجالًا مسلَّحين وأطفالًا لا يبكون. رأى وجوه الناس الحجرية عندما يكون الكل في حالة فرار. ورأى شجرة بجانب الطريق. ورأى الصبي الذي جاء به إلى ذلك المكان البعيد معلقًا من رقبته في أحد فروعها ...

اقترب «هيرفي جونكور» ووقف فترةً قصيرة يُراقبه وكأنه في غشية. ثم فك الحبل المربوط بالشجرة، جمع جسد الصبي ووضعه على الأرض وركع إلى جواره. لم يستطع أن يُبعد عينيه عن ذلك الوجه ولذلك لم يرَ القرية عندما بدأَت تتحرك، سمع فقط ما بدا أنه صوت القافلة عندما مرت من أمامه ماضية في طريقها. لم ينظر إليها ... حتى عندما سمع صوت «هاراكي» على بُعد خطوة منه يقول له: اليابان بلاد عريقة، أتفهم ذلك؟ ولها قوانينها القديمة؛ القانون يقول إن هناك اثنتي عشرة جريمة يستحق مرتكب إحداها أن يُقتل. وإحداها ... عندما ينقل خادم رسالة غرام من مخدومته.

لم يرفع «هيرفي جونكور» عينَيه عن الصبي المقتول.

«لم يكن معه رسالة غرامية.»

«كان هو رسالة غرامية.»

شعر «هيرفي جونكور» بشيء يضغط على رأسه ويدفعه نحو الأرض.

«هذه بندقية أيها الفرنسي اخفِضْ بصرك ... أرجوك.»

لم يفهم «هيرفي جونكور» في البداية، وعندما مرت من أمامه القافلة المسرعة التقطَت أذناه ذلك الصوت الذهبي الصادر من ألف جرس يقترب شيئًا فشيئًا ... ويتصاعد إليه على الطريق مع كل تلك خطوة، ورغم أن شيئًا لم يظهر أمام عينَيه المحدِّقتَين سوى الأرض السوداء، إلا أنه كان يرى المحفَّة بعين خياله وهى تتأرجح مثل البندول ... رآها جيدًا قادمة على الطريق ... تتقدم ببطء ولكن بالتأكيد ... محمولة على ذلك الصوت الذي كان يعلو ويعلو ... لدرجة لا تُحتمل ... ويقترب ويقترب لدرجة أن يلمسَه وهو يمُر أمامه ... صوت ذهبي ... بجواره تمامًا ... الآن ... بجواره بالتحديد ... في تلك اللحظة ... تلك المرأة ... بجواره.

رفع «هيرفي جونكور» رأسه.

المحفَّة ملفوفة بالحرير. ألف لون. البرتقالي، الأبيض، الذهبي، الفضي. عُشٌّ رائع لا تشوبه شائبة ... لا شيء سوى حفيف تلك الألوان المتموجة في الهواء ... رقة لا يمكن اختراقها ... أكثر خفَّة من اللاشيء.

لم يسمع «هيرفي جونكور» انفجارًا ينسف حياته. سمع الصوت الآخر يمضي بعيدًا عنه. شعر بماسورة البندقية ترتفع عنه وسمع كلمات «هاراكي» الهادئة: «اذهب أيها الفرنسي، ولا تأتِ إلى هنا مرةً أخرى.»

٤٩

لا شيء على الطريق غير الصمت. جثة صبي على الأرض. رجل راكع. حتى آخر ومضة من ضوء النهار.

٥٠

بعد أحد عشر يومًا وصل «هيرفي جونكور» إلى «يوكوهاما». قدَّم رشوة لموظفٍ ياباني وحصل على ستَّ عشرة عُلبةً من بيض دود الحرير القادم من جنوب الجزيرة. لفَّ البيض في حرير ووضعه في أربع عُلبٍ خشبية مستديرة. وجد سفينةً صغيرة متجهة إلى القارَّة. وفي الأيام الأولى من شهر مارس وصل إلى الساحل الروسي، اختار الطريق الشمالي بحثًا عن البرودة لكي يحافظ على حياة البيض ويُطيل الوقت قبل أن يفقس. قطع أربعة آلاف

كيلومتر بصعوبة في سيبيريا، عبر «الأورال» ووصل إلى «سان بطرسبورج». أنفق مالًا كثيرًا لشراء الثلج بالطن وحملَه مع البيض في شاحنةٍ متجهة إلى «هامبورج». استغرقَت الرحلة ستة أيام. فتح الصناديق الخشبية الأربعة وركب قطارًا متجهًا نحو الجنوب. استمرَّت الرحلة إحدى عشرة ساعة، وبمجرد أن غادرا مدينة اسمها «إبرفيلد» توقف القطار لكي يتزود بالماء. نظر «هيرفي جونكور» حوله.

كانت شمسٌ صيفية تضرب حقول القمح في كل العالم من حوله. يجلس قبالته تاجر روسي كان قد خلع حذاءه وراح يُهوي على نفسه بالصفحة الأخيرة من جريدةٍ ألمانية. حدَّق فيه «هيرفي جونكور». لاحظ بُقع العرق على قميص الرجل وقطرات منه على جبهته ورقبته. صدرَت عن الروسي بعضُ الإيماءات وراح يضحك. ابتسم له «هيرفي جونكور»، وقف وأخذ حقائبه ونزل من القطار. سار بحذائه حتى العربة الأخيرة، عربة البضائع التي تحمل الأسماك واللحوم المثلَّجة، وكان الماء يتدفق كأنه من حوضٍ مثقوب بآلاف الطلقات. جذب الباب ففتحه، صعد إلى العربة، تناول عُلَبه الخشبية واحدةً واحدة. حملها إلى الخارج وتركها على الأرض بجوار القضبان. بعد ذلك أغلق الباب مرةً أخرى ووقف منتظرًا. عندما أصبح القطار مستعدًّا للتحرك سمع صوتًا ينادي عليه لكي يسرع ويصعد إلى العربة. أجاب بهزة رأس وتلويحة وداع. رأى القطار يتحرك بعيدًا ويختفي. انتظر إلى أن غاب الصوت. بعد ذلك انحنى وتناول عُلبةً من العلب، أزال السدادة وفتح الغطاء ... ثم فعل الشيء نفسه بالعُلَب الأخرى ... ببطء وحرص شديدَين.

ملايين اليرقات الميتة.

الديدان الصغيرة.

كنا في السادس من مايو عام ١٨٦٥.

٥١

دخل «هيرفي جونكور» «لافيل ديو» بعد ذلك بتسعة أيام. رأت زوجته «هيلينا» العربة قادمة نحو البيت من على البعد. قالت لنفسها إنها لا ينبغي لها أن تبكي ولا أن تجري. ذهبَت إلى الباب الأمامي، فتحَته ... ووقفَت على العتبة.

عندما وصل عندها «هيرفي جونكور» ابتسمت، عانقها وهو يقول بهدوء: «ابقي معي ... أرجوكِ.»

في تلك الليلة سهرا طويلًا جالسَين متجاورَين على الحشائش أمام منزلهما. كانت «هيلينا» تحكي عن «لافيل ديو»، عن تلك الشهور الطوال ... والانتظار ... وتلك الأيام الأخيرة المروعة.

قالت: «كنتَ ميتًا ... ولم يكن هناك — قد بقي — أي شيءٍ جميل في كل العالم.»

٥٢

كان الناس في «لافيل ديو» ينظرون إلى أشجار التوت حول الحضانات وهي تتفجر بالأوراق النابتة ويشهدون ما حل بهم من خراب. وجد «بالدابيو» بعض رسائل البيض، ولكن الفقس كان يموت بمجرد أن يواجه الضوء. كان الحرير الخام الذي ينجحون في استخلاصه من اليرقات القليلة الناجية، يكفي بالكاد لتشغيل مشغلَين اثنَين من مشاغل المدينة السبع.

سأله «بالدابيو»: «هل لديك أية أفكار؟»

أجاب «هيرفي جونكور»: فكرةٌ واحدة ...

وفي اليوم التالي أشاع أنه سيقوم أثناء شهور الصيف بتخطيط حديقة الفيلَّا الخاصة به. استأجر من المدينة رجالًا ونساءً بالعشرات. قاموا بإزالة تل الخشب وتسويته ليصنع انحدارًا جميلًا بالوادي. استخدموا الأشجار والأعشاب لتنسيق ممراتٍ وزرعوا أنواعًا مختلفةً من الزهور فتفتحَت حدائق صغيرة كأنها مساحاتٌ غير متوقعة وسط بستانٍ خشبي ... جمعوا ماء النهر في مسار وجعلوه يتساقط من نافورة إلى أخرى حتى حدود الحديقة الغربية ... وهناك تجمع في بُحيرةٍ صغيرة تُحيط بها الخضرة.

وناحية الجنوب، بنَوا قفصًا ضخمًا من الخشب والمعدن، كان يبدو وكأنه زخرفةٌ معلقة في الهواء ...

استمر العمل أربعة شهور. وفي نهاية سبتمبر كانت الحديقة جاهزة. لم يكن أحد في «لافيل ديو» قد رأى شيئًا مثل ذلك من قبلُ. قالوا إن «هيرفي جونكور» قد وضع كل رأسماله فيه. قالوا أيضًا إنه قد عاد من اليابان شخصًا مختلفًا ... وربما شخصًا مريضًا ... قالوا إنه باع البيض للإيطاليين وإنه لديه الآن ثروةٌ من الذهب يضعها في بنوك باريس. قالوا إن العمل في حديقة هو الذي أنقذه من الجوع في ذلك العام. قالوا إنه محتال. قالوا إنه قديس. وقال أحدهم: هناك شيءٌ ما ... تبدو عليه التعاسة!

٥٣

كل ما يستطيع أن يقوله «هيرفي جونكور» عن رحلته هو أن البيض فقَس في مدينة بالقرب من «كولون» ... وأن المكان اسمه «إبرفيلد». بعد أربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا من عودته جلس «بالدابيو» في مواجهته على حافة البحيرة عند الحد الغربي للحديقة وقال له: «على أية حال، سيكون عليك أن تقول الحقيقة لأحدٍ ما عاجلًا أو أجلًا.»

قال ذلك ببطءٍ وإجهادٍ ... لأنه لم يعتقد ... لم يعتقد قَط أن الحقيقة يمكن أن تكون مفيدةً لأي شيء ...

رفع «هيرفي جونكور» نظره نحو الحديقة. كنا في الخريف، وفي كل الأرجاء يلعب ضوءٌ مخادع ...

«أول مرة رأيتُ فيها «هاراكي» كان يرتدي سترةً غامقة اللون، كان يجلس بلا حركة ... مقرفصًا في ركن من الحجرة بجواره كانت ترقد امرأة ... رأسها مستقر في حجره. لم يكن لعينها تلك السَّحبة الشرقية ... كان وجهها وجه فتاة صغيرة.»

كان «بالدابيو» يستمع إليه في صمت ... حتى النهاية ... حتى القطار في إبرفيلد ... لم يفكر بشيء.

كان يستمع.

آلمه أن يسمع «هيرفي جونكور» يقول في النهاية بكل هدوء: «لم أسمع حتى صوتها! أبدًا ...»

ثم بعد فترة قصيرة:

«إنه ألمٌ غريب.»

وبهدوء:

«أن تموت شوقًا إلى شيء لن تُجربه أبدًا.»

سارا في الحديقة جنبًا لجنب. كان الشيء الوحيد الذي قاله «بالدابيو»: «ما الذي يجعله باردًا هكذا يا تُرى؟»

كان ذلك هو كل ما قاله عند نقطةٍ معيَّنة.

٥٤

مع بداية العام الجديد — ١٨٦٦ — رفعَت اليابان الحظر على تصدير بيض دود الحرير رسميًّا.

وخلال العقد التالي كانت فرنسا وحدها هي التي تستورد البيض الياباني بما يعادل عشرة ملايين فرنك. والأكثر من ذلك أنه بعد فَتْح قناة السويس في ١٨٦٩م أصبح من الممكن الوصول إلى اليابان في مدة لا تزيد عن عشرين يومًا ... والعودة في أقل من عشرين يومًا.

وفي سنة ١٨٨٤، حصل فرنسيٌّ اسمه «شاردونييه» على براءة اختراع الحرير الصناعي.

٥٥

بعد ستة أشهر من عودته إلى «لافيل ديو» تسلَّم «هيرفي جونكور» مظروفًا عن طريق البريد له لون الخردل. فتحه، فوجد سبع صفحاتٍ تُغطيها كتابةٌ هندسية مزدحمة صعبة القراءة. حبرٌ أسود. حروفٌ يابانية. باستثناء الاسم والعنوان على المظروف، لم يكن هناك حرفٌ واحد من الأبجدية الأوروبية. أما طابع البريد فيكشف عن أن الرسالة قد جاءت من «أوستند». قلَّبها بين أصابعه وتأمَّلها طويلًا. تُشبه نَكْش أرجل طيورٍ صغيرة ومكتوبة بتنميقٍ شديد. من عجبٍ أن تكون تلك الأشكال حاملة لرموز أو إشارات ... إنها بقايا صوت ... أتت عليه النيران.

٥٦

ظل «هيرفي جونكور» محتفظًا بالرسالة معه أيامًا في جيبه. إذا غيَّر الثوب الذي يرتديه نقلها إلى الثوب الجديد. لم يفتحها لكي ينظر إليها ... كان يتحسَّسها من وقت لآخر بأصابعه بينما يتحدث مع أحد المستأجرين أو وهو جالس في الشرفة ينتظر وقت العشاء. ذات ليلة حاول أن يتفحَّصها في مكتبه على ضوء مصباح. وفي ذلك الوضوح كان نكش أقدام الطيور الصغيرة يتكلم بصوتٍ مكتوم. لم يكن للكلام معنًى. لعله كان شيئًا يمكن أن يطلق حياة بكاملها من عقالها. لم تكن هناك أية وسيلة للفهم ... وكان ذلك فيه الكفاية بالنسبة لـ «هيرفي جونكور». سمع «هيلينا» قادمة. وضع الرسالة على الطاولة.

اقتربَت منه «هيلينا» كما تفعل كل ليلة قبل أن تأوي إلى فراشها، وحاولَت أن تقبِّله. عندما مالت عليه انشَق طوق ردائها الليلي عن صدرها. لاحظ أنها لم تكن ترتدي شيئًا تحته، وأن صدرها كان صغيرًا وأبيض اللون مثل صدر فتاةٍ صغيرة.

أربعة أيام وهو يواصل حياته كالمعتاد. لا شيء يتغير في ممارساته اليومية. في صباح اليوم الخامس ارتدى حُلةً رمادية اللون ... أنيقة ... وذهب إلى «نيمس». قال إنه سيعود قبل حلول المساء.

٥٧

كل شيء في ١٢ شارع «موسكات» كما كان قبل ثلاث سنوات. الحفل لم ينتهِ بعدُ. البناتُ كلُّهن صغيراتُ السِّن ... وفرنسيات. عازف البيانو يعزف ألحانًا تبدو روسية ... الألحان هادئة. ربما بسبب السن، وربما أسفًا ... لم يعُد يُمرر يده في شعره في نهاية كل مقطوعة ولم يعُد يقول: «هكذا إذن.» كان يبقى ساكنًا وهو ينظر إلى يدَيه في اضطراب.

٥٨

استقبلَته «مدام بلانش» دون أن تنطق بكلمة. شعرٌ أسود لامع. ملامحُ شرقية. أناقة وجمال. زهور زرقاء في أصابعها مثل الخواتم الكثيرة. رداءٌ أبيض طويل ... شفَّاف تقريبًا ... وكانت حافية القدمَين. جلس «هيرفي جونكور» قبالتها. أخرج الرسالة من جيبه.

– هل تذكرينني؟

أجابت مدام بلانش بإيماءة.

– أنا في حاجة إليك مرةً أخرى.

قدَّم الرسالة إليها. تناولَتها وفتحَتها ... رغم أنه لم يكن هناك ما يُجبرها على أن تفعل ذلك. نظرت إلى الصفحات السبع واحدةً واحدة ثم رفعَت عينَيها إليه.

«هذه اللغة لم تعُد تعني شيئًا بالنسبة لي يا مسيو، أريد أن أنساها، أريد أن أنسى تلك البلاد ... وحياتي هناك ... وكل شيء.»

جلس «هيرفي جونكور» دون حَراك، يداه تقبضان على ذراعَي المقعد. «سوف أقرأ هذه الرسالة، سأفعل ذلك، ولا أريد نقودًا. أريد وعدًا ولا أكثر: لا تأتِ مرةً أخرى لتطلب مني شيئًا كهذا.»

– «أَعِدُكِ يا مدام.»

نظرَت إليه في عينَيه، ثم نظرَت في الصفحة الأولى من الرسالة. ورق أرز. حبرٌ أسود. وقالت: «سيدي وحبيبي،

لا تخَفْ، لا تتحرك، أصمت، لن يرانا أحد.»

٥٩

ابقَ هكذا، أريد أن أنظر إليك، لقد نظرتُ إليك كثيرًا ولكنك لم تكن لي، والآن أنت لي. لا تقترب ... أرجوك ... ابقَ كما أنت، لدينا ليلة كاملة ... لنا ... وأريد أن أنظر إليك ... لم أرَك قط هكذا ... جسدُك لي، جلدك، أَغمِض عينَيك ... مرِّر يدك على جسدك ... من فضلك.»

كانت مدام بلانش تقول وهو يسمع: «لا تفتح عينَيك، مسِّد نفسك، يداك جميلتان، لكم حلَمتُ بهما ... والآن أريد أن أراهما ... أحب أن أراهما على جلدك ... نعم ... هكذا ... استمر أرجوك ... لا تفتح عينَيك ... أنا هنا ... لا أحد يمكن أن يرانا وأنا بجوارك ... مسِّد نفسك يا سيدي وحبيبي ... مسِّد عضوك ... أرجوك ... ببطء ...»

توقفَت مدام بلانش قال: «أكملي أرجوكِ.»

«جميلةٌ يدُك عليه ... لا تتوقف ... أحب أن أنظر إليها وأنظر إليك يا سيدي وحبيبي، لا تفتح عينَيك، ليس بعد، لا تخف ... أنا هنا بجوارك ... هل تشعر بي؟ أنا هنا ... أستطيع أن ألامسك ... هذا حرير ... هل تشعر به؟ إنه حرير ردائي ... لا تفتح عينَيك ... وسيكون لك جلدي!»

قالت. كانت تقرأ ببطء. بصوت امرأةٍ طفلة.

«وستكون لك شفتاي، عندما ألمسك للمرة الأولى سيكون بشفتي، لن تعرف أين ... وعند نقطة معينة ستشعر بدفء شفتي عليك ... لن تعرف أين ... إن لم تفتح عينَيك ... لا تفتحهما ... ستشعُر بشفتي ولا تعرف أين ... فجأة.»

كان يستمع إليها وهو لا يتحرك، ومن الجيب العلوي يبرز منديلٌ أبيض نظيف.

«ربما يكون على عينَيك، سوف أضغط بشفتي على جفنَيك وحاجبَيك، وسوف تشعر بمسرى الدفء عبر رأسك وشفتاي على عينَيك ... في عينَيك ... وربما سأضغط بشفتي هناك وسوف أفرجهما قليلًا كلما نزلتُ إلى أسفل ...»

قالت وعيناها على الصفحات وإحدى يدَيها تمسِّد رقبتها ببطء: «سأتركه يشق شفتيَّ ... يدخل بينهما ويضغط على لساني ... وسوف يتدفق لعابي على جلدك حتى يصل إلى يدَيك ... قُبلتي ويدك ... إحداهما في الأخرى ...»

كان يستمع إليها وعيناه مثبتتان على إطار صورة فضِّي معلَّق على الحائط دون صورة ...

«إلى أن أُقبِّلكَ في النهاية في القلب لأنني أريدك، سوف أعضُّ الجلد الذي ينبض على قلبك لأني أريدك، وبقلبك بين شفتيَّ ستكون لي حقًّا وصدقًا، وفمي في قلبك ستكون لي

إلى الأبد ... إن كنت لا تُصدقني فافتح عينَيك يا سيدي وحبيبي وانظر إليَّ. هذه أنا ... من يستطيع أن يمحو هذه اللحظة الحادثة؟ وهذا الجسد ... جسدي الذي لم يعُد عليه أي حرير ... يداك تلمسانه ... وعيناك تنظران إليه ...»

قالت ذلك. مالت نحو المصباح. المصباح يلقي ضوءه على الصفحات ويخترق شفافية ثوبها ...

«أصابعك على وجهي ولسانك على شفتي وأنت تنزلق تحتي تمسك بي من مفصلَي الوركَين ... ترفعني ... تتركني أنزلق عليه ... من يستطيع أن يمحو ذلك؟ أنت بداخلي ... تتحرك ببطء ... يداك على وجهي أصابعك على فمي ... والنشوة في عينَيك، في صوتك، تتحرك ببطء ولكن ليس إلى الحد الذي يؤلمني ... لذتي ... صوتي ...»

يستمع. عند نقطة معينة وجَّه نظرة إليها. رآها. أراد أن يسترد عينَيه فلم يستطع.

«جسدي على جسدك، ظهرك يحملني، ترفعني ذراعاك اللتان لن تتركاني، الطعنات التي تقتحمني، عنفٌ حلو ... أرى عينَيك تسبران عيني ... تريدان أن تعرفا إلى أي مدًى تمضى في إيلامي ... إلى المدى الذي تحب يا سيدي وحبيبي ... ليس من نهاية، لن تنتهي، ألا ترى؟ لا أحد يستطيع أن يمحو تلك اللحظة الحادثة، ستظل تلقي برأسك إلى الخلف ... إلى الأبد، تصرخ، وإلى الأبد سوف أغمضُ عيني، أطرد الدموع من على حاجبي، صوتي في صوتك، عنفك في القبض عليَّ بإحكام، لا وقت للهرب ولا قدرة على المقاومة. كان لا بد أن تكون هذه اللحظة ... وها هي اللحظة ... صدقني يا سيدي وحبيبي ... هذه اللحظة سوف تستمر ... من الآن ستكون ... حتى النهاية.»

لم تكن هناك كتابةٌ أخرى في الصفحة التي تُمسِك بها؛ الصفحة الأخيرة، ولكنها عندما قلبَتْها لتضعها إلى جوارها لاحظَت وجود بعض السطور على ظهرها، السطور مكتوبة بتنميقٍ شديد. حبر أسود في منتصف الصفحة البيضاء. رفعَت عينَيها إلى «هيرفي جونكور». عيناه مثبَّتتان عليها وأدركَت أنهما كانتا أجمل العيون، ومرة أخرى خفضَت عيَنيها لتنظر إلى الورقة. وقالت: «لن نرى بعضنا البعض مرة أخرى يا سيدي، ذلك الذي كان مقدرًا لكلينا، فعلناه، كما تعرف، صدقني؛ فعلناه إلى الأبد. اضغط حياتك بعيدًا عن متناولي ولا تتردد لحظة ... إن كان ذلك ضروريًّا ... ومفيدًا من أجل سعادتك أن تنسى تلك المرأة التي تقول لك الآن، دون أسف، «وداعًا» ظلت ناظرة إلى الصفحة للحظة، ثم وضعتها فوق الأوراق الأخرى بجوارها على طاولة مصنوعة من الخشب الملون بدرجاتٍ هادئة.

«هيرفي جونكور» لم يتحرك من مكانه. أدار رأسه فقط وخفض عينَيه. وجد نفسه يحدق رابط الجأش في ثنية بنطاله ... في رجله اليمنى من الفخذ إلى الركبة ...

قامت «مدام بلانش»، مالت على المصباح وأطفأَتْه. ظلَّت الغرفة منيرة بالضوء الخافت الذي كان يصل إليهما من نافذة الصالون. اقتربَت من «هيرفي جونكور»، خلعَت من إصبعها خاتمًا من الزهور الزرقاء الصغيرة ووضعَتْه إلى جواره، ثم عبَرت الغرفة، فتحَت بابًا صغيرًا غير ظاهر في الجدار ... ثم اختفت بعد أن تركَته مواربًا وراءها.

وقف «هيرفي جونكور» وقتًا طويلًا في ذلك الضوء الغريب يُقلب خاتمًا من الزهور الصغيرة حول إصبعه. ومن الصالون كانت تأتي أنغام بيانو متعبة ... تذوب في الوقت ... لدرجة أنك لا يمكن أن تتعرف عليها.

ثم قام في النهاية. اقترب من الطاولة المصنوعة من الخشب الملون بدرجات هادئة وجمع الأوراق السبع، عبر الغرفة، مَرَّ أمام الباب نصف المفتوح دون أن يلتفت ... ومضى.

٦٠

قضى «هيرفي جونكور» السنوات التالية ملتزمًا أسلوب الحياة الهادئة المناسبة لرجلٍ لا ينقصُه شيء. يقضي أيامه بنظامٍ محسوب، وكان الناس في «لافيل ديو» يُعجبون به لدقته وانضباطه في تعامله مع الحياة. قالوا إنه كان هكذا حتى قبل اليابان. أصبح من عادته القيام برحلة سنوية قصيرة مع زوجته «هيلينا». زارا نابولي وروما ومدريد وميونخ ولندن. في أحد الأعوام وصلَا إلى براغ حيث كان كل شيء يبدو وكأنه مسرح. يسافران ولا يفكران في التواريخ ولا البرامج. ويجدان الدهشة في كل شيء سرًّا ... حتى في سعادتهما. وعندما كان يناديهما الصمت يعودان إلى «لافيل ديو».

ولو أن أحدًا سأل «هيرفي جونكور» لأجابه: هكذا سنمضي في الحياة إلى الأبد. كل ما حوله هادئ، هدوء الناس المطمئنين الذين يشعرون بالراحة مع أنفسهم. في الأيام التي تشتد فيها الحرارة، كان يعبر الحديقة أحيانًا ويمضي حتى البحيرة، ويقف على الشاطئ بالساعات يرقب تدافُع الأمواج على سطح الماء؛ فهي تأخذ أشكالًا مفاجئة، وتومض في كل اتجاه كيفما اتفق. الريح واحدة ... واحدة فقط ... ولكنها تبدو كألف عاصفة تهبُّ على ذلك السطح المصقول كالمرآة ... تهبُّ من كل اتجاه. مشهد رائع. خفيف. ولكنك لا تسبُر أغواره.

وفي الأيام العاصفة، كان «هيرفي جونكور» يذهب أحيانًا إلى البحيرة يتأملها بالساعات، ويبدو أنه كان يكتشف ... ويتبيَّن له مرسومًا على صفحة الماء مشهدُ حياته الذي لا يُفسر ... حياته بكل خفَّتها.

٦١

في السادس عشر من يونيو ١٨٧١، في آخر مقهى فيردون، قُبيل الظهر بوقتٍ قصير ... استطاع اللاعب المعوَّق أن يفوز ويتعادل ... انحنى «بالدابيو» على طاولة البلياردو غير مصدق، يدٌ خلف ظهره ... والثانية تُمسك بالعصا.

«تصوَّر!»

اعتدل، وضع العصا ومضى دون كلمة. وبعد ثلاثة أيام رحل. وأهدى مشغلَيه لـ «هيرفي جونكور».

«لا أريد أن أشتغل بالحرير أكثر من ذلك يا «بالدابيو»، بِعهُما أيها الجحش!»

لم يستطع أحد أن يعرف منه أين كان ينوي ذلك الشيطان الذهاب. ولا ماذا سيفعل هناك. كل ما فعله هو أنه أسقط شيئًا بالقرب من «سانت آجنس» لم يتبيَّنه أحد.

صباح رحيله، صحبه «هيرفي جونكور» و«هيلينا» إلى محطة سكة حديد «أفينون». كان كل ما يحمله معه حقيبة سفر وتلك في حد ذاتها لم تكن عصيةً على الفهم. عندما شاهد القطار منتظرًا على الرصيف، وضع الحقيبة.

قال: «ذات يومٍ كنتُ أعرف رجلًا بنى سكة حديد لنفسه، وتعرف ...؟ بناها مستقيمة كالسهم ممتدة مئات الكيلومترات دون انعطافة واحدة. كان لديه سبب وإن كنتُ لا أتذكره. الأسباب تُنسى دائمًا ... على أية حال ... وداعًا!»

لم يكن «بالدابيو» في الحقيقة رجل المناقشات الجادة، والوداع أمرٌ جادٌّ.

شاهداه يمضي هو وحقيبته ... إلى الأبد. بعد ذلك أتت «هيلينا» شيئًا غريبًا. تركَت «هيرفي جونكور» وركضَت خلفه حتى لحقَت به وعانقَته بشدة ... ثم انفجرَت باكية وهي تعانقه. «هيلينا» لم تبكِ قط قبل ذلك.

باع «هيرفي جونكور» المشغلَين بثمنٍ زهيد إلى «ميشيل لاريو»، وهو شخصٌ بدين كان يلعب الدومينو مع بالدابيو كل يوم سبت لمدة عشرين عامًا ... وكان يخسر دائمًا. كان له ثلاث بنات. الكبريان «فلورانس» و«سيلفيا»، الثالثة «آجنس».

٦٢

بعد ثلاث سنوات، في شتاء عام ١٨٧٤، مرضَت «هيلينا» بالحمَّى الشوكية ... لم يستطع أحدٌ أن يُشخِّصها أو يعالجها. ماتت في أوائل مارس ... وأمطرَت السماء في ذلك اليوم.

خرجَت «لافيل ديو» كلها تُرافق جثمانها في صمتٍ حتى المقابر. كانت امرأةً محبة للفرح ... لم يحدث أن سببَت حزنًا لأحد. على مقبرتها حفر «هيرفي جونكور» كلمة واحدة: «وا حسرتاه!»

شكَر الناس جميعًا، قال أكثر من مرة إنه لا يحتاج شيئًا وعاد إلى المنزل. لم يسبق أن بدا البيت له كبيرًا هكذا! ولم يسبق أن بدا له مصيره بلا منطق هكذا! ... وحيث إن اليأس كان ترفًا زائدًا لا وجود له لديه، ركَّز على ما بقي من حياته، وبدأ ثانية يُوليها اهتمامه ... بصلابة، وعناء لا يهتز لمزارع يعود إلى حقله في اليوم التالي للعاصفة.

٦٣

بعد موت «هيلينا» بشهرَين وأحد عشر يومًا حدث أن قام «هيرفي جونكور» بزيارة للمقابر، وهناك وجد إكليلًا من الزهور الزرقاء الصغيرة إلى جوار الورود التي كان يضعها كل أسبوع على المقبرة. انحنى لكي ينظر إليها، وبقي على هذا الوضع وقتًا طويلًا ... كأنه الدهر. من على البُعد كان منظره يبدو غريبًا للعابرين ... إن لم يكن شاذًّا. وعندما عاد إلى المنزل لم يذهب للعمل في الحديقة كعادته، بقي في مكتبه يفكر. في أواخر الأيام لم يكن يفعل شيئًا. كان يفكر.

٦٤

في ١٢ شارع «موسكات» وجد محل ترزي. قالوا له إن «مدام بلانش» لم تعُد تُقيم هنا من سنوات. نجح في أن يعرفَ أنها انتقلَت إلى باريس؛ حيث أصبحَت عشيقة رجلٍ مهم جدًّا ... شخصية سياسية ربما.

ذهبَ «هيرفي جونكور» إلى باريس.

بعد ستة أيامٍ استطاع أن يعرفَ عنوانها. أرسل إليها يطلب موعدًا. ردَّت بأنها تنتظره في الرابعة مساء اليوم التالي. في الموعد المحدد، كان يصعد السُّلم إلى الطابق الثاني من منزلٍ جميل في «بوليفار دي كابوسيا». فتحَت البابَ له خادمة. أدخلَته إلى غرفة الاستقبال وطلبَت منه أن يتفضل بالجلوس.

جاءت «مدام بلانش» وهي ترتدي حُلةً أنيقة ... فرنسية جدًّا ... شعرها منسدل على الكتفَين حسب المودة الفرنسية. لم يكن في أصابعها أي خواتم من الزهور. جلسَت قبالة «هيرفي جونكور» دون أن تتكلم ... وانتظرت.

نظر إليها في عينَيها ... ولكن على النحو الذي يفعله الطفل. قال: أنتِ التي كتبتِ تلك الرسالة ... أليس كذلك؟ «هيلينا» طلبَت منكِ أن تكتبيها ... وفعلتِ؟

«مدام بلانش» تجلس دون حركة، لم تخفِض عينَيها، لم يبدُ عليها أي دهشة ... أي بادرة على الدهشة.

ثم قالت: «لم أكتبها أنا.»

صمت.

«هيلينا هي التي كتبَتْها.»

صمت.

«عندما جاءت إليَّ كانت معها، كانت قد كتبَتها. وطلبَت مني أن أنسخها باليابانية. وفعلَت. هذه هي الحقيقة.»

في هذه اللحظة أدرك «هيرفي جونكور» أن عليه أن يُكمِل الاستماع إلى تلك الكلمات حتى نهاية حياته. نهض، ظلَّ واقفًا ... وكأنه نسي الوجهة التي يريد. كان صوت مدام بلانش يصل إليه كأنه قادمٌ من البعيد.

«كانت تريد أن تقرأ لي تلك الرسالة ... كان صوتها جميلًا ... أجمل الأصوات ... وقرأَت تلك الكلمات بعاطفة لا يمكن أن أنساها ... بإحساسٍ فريد ... وكأنها كانت كلماتها هي.»

كان «هيرفي جونكور» يعبُر الغرفة ببطء ...

«تعرف يا «مسيو» ... أعتقد أنها كانت تودُّ أكثر من أي شيء في العالم أن تكون تلك المرأة ... لن تفهم ... ولكني سمعتُها وهي تقرأ تلك الرسالة. أعرف.»

كان «هيرفي جونكور» قد وصل إلى الباب. وضع يدَه على المقبض ودون أن يلتفتَ قال بهدوء، وببطء ... «وداعًا يا مدام.»

بعدها لم يرَ أحدهما الآخر أبدًا.

٦٥

بعد ذلك عاش «هيرفي جونكور» ثلاثًا وعشرين سنة معظمُها في هدوءٍ وصحةٍ جيدة. لم يبرَح «لافيل ديو» أبدًا ... ولا حتى منزلَه.

أدار ممتلكاته بحكمة وتعقُّل، الأمر الذي حفظه من الاحتياج إلى أي شيءٍ آخر غير العمل في حديقته. بعد ذلك كان يسمح لنفسه بمتعةٍ طالما حرم نفسه منها؛ كان يحكي

عن أسفاره لمن يأتون لزيارته. وبينما هم يستمعون إليه اكتشف أهالي «لافيل ديو» العالَم، وعرفَ الأطفال معنى أن يكون ذلك ساحرًا ومدهشًا. يروي حكاياته ببطء بينما يرى أمامه في الأثير ما لا يراه غيره. في أيام الأحد يذهب إلى المدينة من أجل القُداس الكبير. ومرةً في كل عام يمُر على مشاغل الحرير لكي يلمسَ الحرير الجديد، عندما تغلبُه الوحدة يذهب إلى المقابر ويتكلم مع «هيلينا» ... أما بقية وقته فعاداتٌ نجحَت في درء الأحزان.

وفي الأيام العاصفة، كان «هيرفي جونكور» يذهب أحيانًا إلى البحيرة يتأملها بالساعات ... ويبدو أنه كان يكتشف ... ويتبيَّن له مرسومًا على صفحة الماء مشهد حياته الذي لا يُفسر ... حياته بكل خفَّتها ...

هنـــداوي